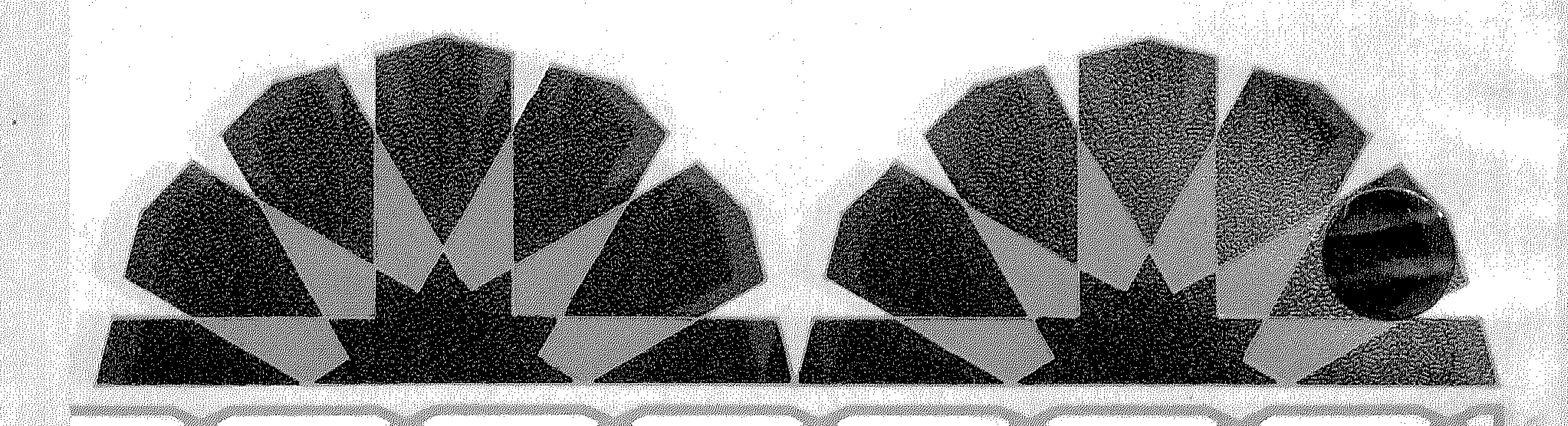
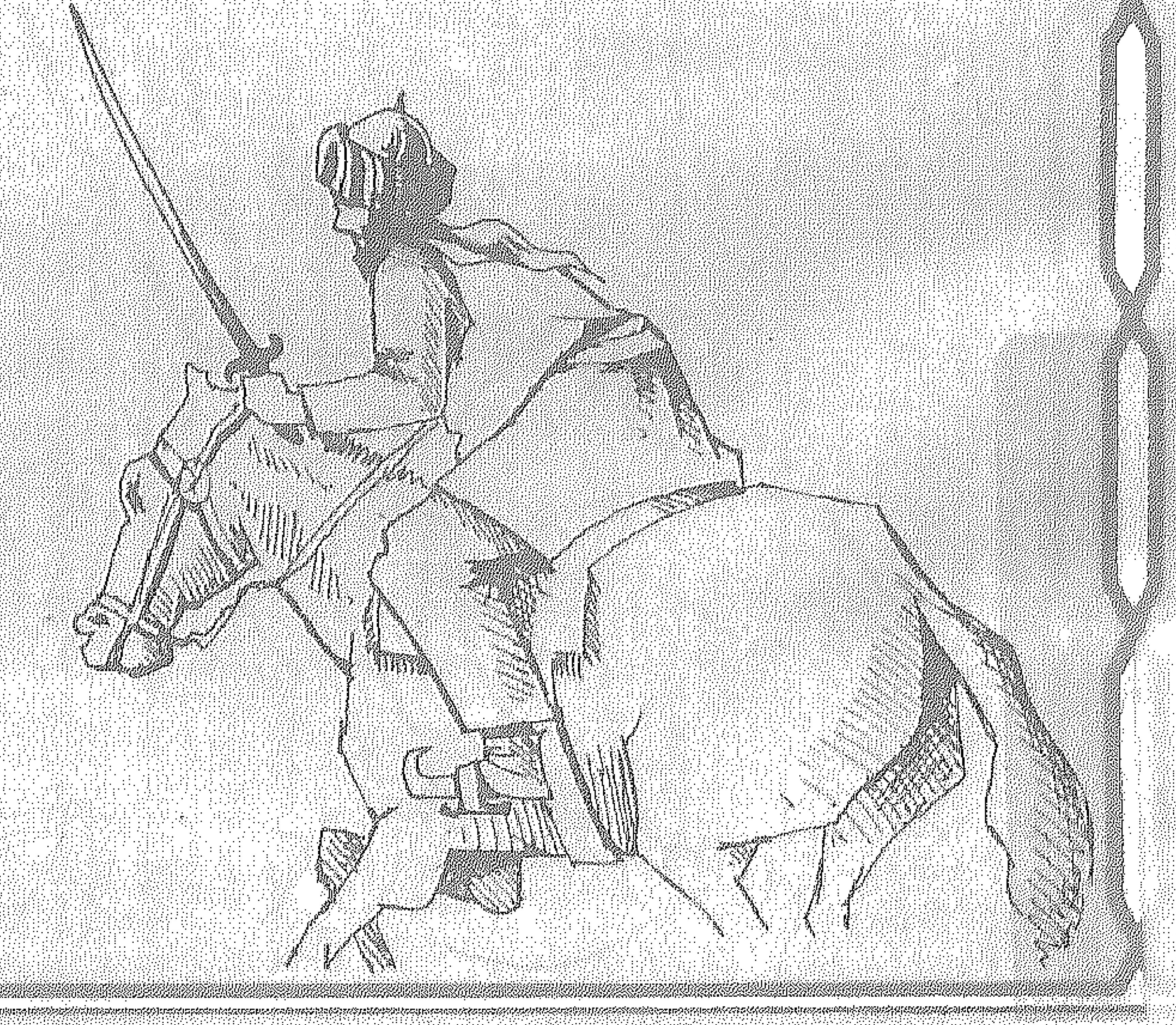
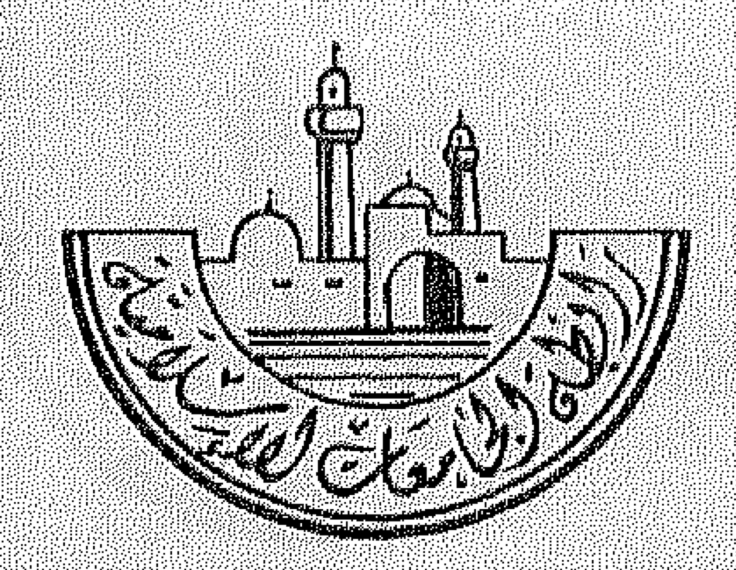


الحروب العثمانية الفارسية

وأثرها في انحسار المد الإسلامي عن أوروبا



د. محمد عبد اللطيف هريدي



الحروب العثمانية الفارسية

وأثرها فى انحسار المد الإسلامى عن أوروبا

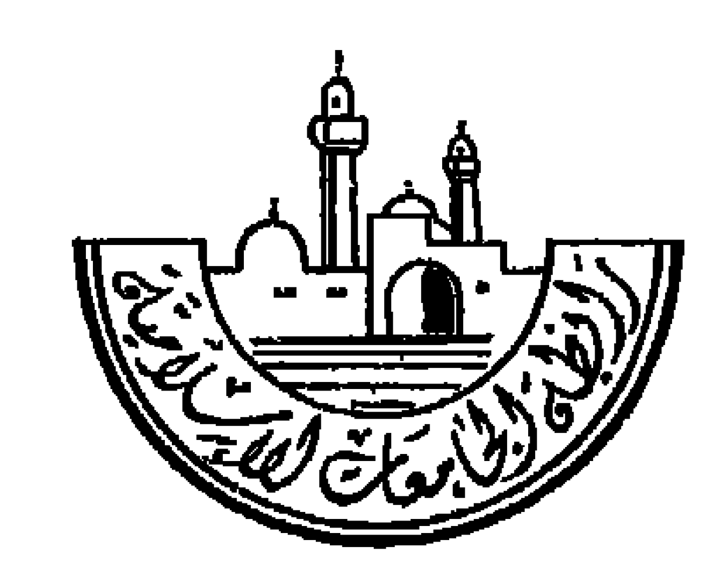
الطبعة الأولى
١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م

دار الصحــوة للنشــر والتوزيــع ـــ القاهـــرة
٧ شـــارع الســـراى بالمنيـــل . ت : ٩٨٧٩٢٤
ش جمال عبدالناصر - حدائق حلوان - مدينة الهدى . ت : ٦٨٨٠٧١

د. محمد عبد اللطيف هريدي

الحروب العثمانية الفارسية

وأثرها في انحسار المد الإسلامي عن أوروبا



بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

﴿ وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾ صدق الله العظيم (الأنفال ، ٤٦)

لقد قيض الله للدولة العثمانية أن تحمل لواء الجهاد الإسلامى فى شرق أوروبا إبان القرن السابع الهجرى ، ولم يكد القرن العاشر أن ينتصف حتى دانت كل أمصار أوروبا الشرقية لهذه الدولة ، وأصبح البحر المتوسط بحيرة إسلامية بعد أن كان مركزاً للحضارة الهيلينية وارتفع المد الإسلامى فى ظل هذه الدولة ، وبلغ حداً لم يبلغه من قبل فى أى حقبة من أحقاب التاريخ الإسلامى ، وحقق الأتراك العثمانيون آمال الفتح التى استشهد فى سبيل تحقيقها المسلمون الأوائل ، وعلى رأسهم الصحابى الجليل أبو أيوب الأنصارى (رضى الله عنه) وكادت الأندلس أن تعود إسلامية لولا أن أطلت الفتنة الفارسية برأسها لتقضى على حكم المسلمين فى أوروبا ، ولتحيل المد الإسلامي إلى جَزْر ، فينحسر الإسلام عن أوروبا برمتها ، ولم يبق من المسلمين إلا بقايا تذكارية لذلك العهد فى بلاد البلقان مثل : يوغوسلافيا وبلغاريا ورومانيا .

ولعل هذه الوريقات تكشف لنا جوانب هذه الفتنة بأبعادها الحقيقية ، وتبين لنا كيف كان مشعلوها الفرس – أي الفتنة – يحسنون إختيار الوقت المناسب للاشعال ، ولعل ما كان بالأمس يصبح لنا اليوم عبرة ودرساً .

والله ولى التوفيق

القاهرة

فى ١٤ محرم ١٤٠٨هـ

الموافق ١٩٨٧/٩/٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

فتن الباطنية بالأناضول قبل قيام الدولة العثمانية

اتخذت القبائل التركية من سهوب آسيا الوسطى موطناً لها ، وكانت هذه السهوب تمتد من منشوريا فى الشمال الشرقى وتسير جنوبا بميل إلى الغرب حتى بلاد ما وراء النهر والهضبة الإيرانية ، ثم تمر شمالا إلى بحر قزوين والبحر الأسود ، ولم تَحُلْ الحياة الرعوية التى عاشتها تلك القبائل دون أن تكون لها دول بين الحين والآخر وأن تقيم علاقات سياسية مع جيرانها فى الصين والهند والهضبة الإيرانية . وكانت هذه القبائل تدين – إلى جانب دياناتها المحلية – ببعض الديانات القديمة المنتشرة آنذاك فى وسط آسيا مثل المانوية والشمانية والبوذية والزرادشتية .. الخ

وكان أول احتكاك مباشر للأتراك بالعالم الإسلامى فى أواخر القرن الأول الهجرى أثناء فتح قتيبة بن مسلم لهذه الأمصار ورغم خضوع هذه الأمصار للحكم الإسلامى فى أواخر القرن الثانى الهجرى لم ينتشر الإسلام بينهم آنذاك بشكل واسع ، وإنما كان انتشاره تدريجيا خاصة بين القبائل غير الخاضعة للحكم الإسلامى ، ولذا تكاد المصادر تجمع على أن الأتراك اعتنقوا الإسلام طواعية وليس نتيجة لضغط من أى نوع ، ثم زادت حركة انتشار الإسلام بينهم بزيادة النشاط التجارى وبدخولهم فى خدمة الخلفاء الأمويين ثم العباسيين[٢] . ولم يكد القرن

الخامس الهجرى أن ينتصف حتى أصبح الاتراك المسلمون كثرة فيما وراء النهر وخراسان ثم قامت لهم دول إسلامية ترعى السنية ، وتناهض الشيعية ، وكانت الدولتان الغزنوية والسلجوقية من أهم هذه الدول لكن مناهضة الأتراك السنيين للتشيع بدأت قبل ذلك حين كانت الدولة العباسية تستعين من حين لآخر بالجند الأتراك لقمع فتن الباطنية والعلويين .

ولاشك أن العشائر التركية حديثة العهد بالإسلام كانت تتأثر بما هو سائد حولها من معتقدات ناهيك عن تلك التى تتفق وتراثها الدينى القديم ، ومن المعروف أن منطقتى ما وراء النهر والهضة الإيرانية كانتا تموجان بالبدع والتيارات المارقة عن الإسلام ، وقد ساعد على اختلاط الحابل بالنابل فى هذه المنطقة عدة عوامل من أهمها انتشار الشيعة وخاصة فى منطقة الديلم التى كانت مكمن المجوس ومعقل المتآمرين ضد الدولة العباسية[٢] خلال حكم البويهيين فى القرن الرابع الهجرى[٣] ، أى فى نفس الفترة التى زاد فيها اقبال الترك على الإسلام .

الهجرات التركية إلى الأناضول :

حدثت هجرات تركية إلى الأناضول قبل قيام دولة السلاجقة فى إيران والعراق ، بيد أن هذه الهجرات لم تكن منظمة فأخذت تنتظم تحت رعاية الحكام السلاجقة ووفق ما يرسمونه من تخطيط لها فزادت كثافة هذه الهجرات سعيا وراء هدفين :

أولهما : اقتصادى ، نتيجة لازدياد عدد القبائل المهاجرة من تركستان الشرقية إلى خراسان وما وراء النهر وضيق المكان بها ومن ثم القحط فى الموارد .

ثانيهما : جهادى لتكون بمثابة حزام أمن تستطيع من خلاله أن تواصل غزواتها ضد الدولة البيزنطية التى تاخمت دولة السلاجقة حدودها الشرقية[٤].

انثالت موجات الهجرة التركية بشكل مكثف بعد انتصار السلاجقة فى موقعة ملازكرد ٤١٤ هـ (١٠٧١ م) ، والتى كان . لها أبعد الأثر فى تتريك الاناضول وأسلمته ، فقد استطاع المسلمون بعدها أن يقيموا دولا فى مختلف أرجاء الاناضول وأهمها دولة سلاجقة الاناضول (الروم) ، ومنذ ذلك الحين

أصبح الاناضول ملاذا للقبائل الفارة أمام الاجتياح المغولى القادم من الشرق إبان القرن السابع الهجرى ، ونتيجة لهذا الفرار الجماعى زادت كثافة العنصر التركى المسلم فى الاناضول ، وزاد عدد الدويلات الإسلامية به . ومن الجديد بالذكر أن هذه القبائل كانت تضم عناصر إما حديثة العهد بالإسلام أو لم تعتنق الإسلام بعد .

ولا شك أن وقوع الاناضول تحت نير الاحتلال المغولى وعدم الاستقرار السياسى والاجتماعى كان لهما أبعد الأثر فى الحياة الفكرية والدينية لهذه القبائل .

انتقـال البدع والفرق الضالة إلى الأناضول :

كانت خراسان — المفعمة بالتراث الدينى الايرانى — تموج بالطرق المبتدعة والطوائف المنحرفة فضلاً عن غلاة الشيعة وتسرب عدد ليس قليل من هذه البدع إلى ما وراء النهر حيث تعيش القبائل التركية حديثة العهد بالإسلام فلم يكد يبدأ القرن الرابع الهجرى حتى ظهر فى فرغانة وبخارى من أطلقوا على أنفسهم الباب أو بابا ، وتزعموا الفرق الضالة التى تستهدف التحلل من شروط العقيدة وقيود العبادات(٥) .

ولا يتسع هذا الحيز الضيق للحديث تفصيلا عن المبتدعين فى الدين والفرق بين فرقهم أو الفرق بينهم والشيعة ، ولكن نكتفى بالإشارة إلى نقطتين أساسيتين :

أولاهما : أن العناصر التركية حديثة العهد بالإسلام آنذاك وقعت تحت تأثير البدع الايرانية فكانت هذه البدع من بين مميزات التراث الذى حملته معها عند هجرتها إلى الاناضول .

ثانيهما : أن الأناضول بما كان فيه من تراث مسيحى رهبانى ، وبما كان يموج به من أحداث سياسية وتطورات اجتماعية كان بيئة صالحة لأن تورق شجرة البدع وتزدهر(٦) إذ أن هذه الأحداث كانت كفيلة بإشاعة جو من القلق وعدم الاستقرار مما جعل الدهماء يلوذون بالتكايا والزوايا ويصدقون كل زعيم بأن الخلاص فى يده ، خاصة بعد فقدان الثقة فى الزعامات السياسية .

وشائــج بين غلاة التصوف والتشيع :

ولئن اختلفت الطرق الصوفية المتطرفة مع غلاة الشيعة فى بعض الجوانب فهى تتفق معها فى بعض المبادىء الأساسية من أهمها :

١ – الابتداع فى الدين .
٢ – فى مبدأ الولاية برمته وفى اشتماله على نمط خفى من العلم والتعلم .
٣ – إعتماد مبدأ التاويل فى فهم القرآن الكريم وتدبر معانيه .
٤ – الاعتقاد بتعدد مراتب المعانى فى الوحى .

ومبدأ الولاية يرتبط ارتباطا وثيقا بفكرة (الإمام) فى المذهب الشيعى ، لأن الإمام هو الذى يتولى المهمة والسلطة التى تخوله إياها الولاية ، ودور الإمام فى التشيع دور رئيسى ومهمته تشبه مهمة (الشيخ الصوفى) شبها شديدا ... فإذا تركنـا جانبا مهام الإمام فان ولايته ودوره كمرشد روحى يشبهان مهمة الشيخ الصوفى فى ولايته وإرشاده شبها تاما ، وكما أن الشيخ فى الصوفية على اتصال دائم بقطب زمانه كذلك الإمام فى التشيع فإن جميع المهام الروحية تتصل به داخليا فى كل زمان – ... وهذا ما أكده سيد حيدر الآملى بوضوح فى قوله : « إن القطب والإمام تعبيران يحملان مدلولاً واحدا ويشيران إلى شخص واحد »[7] ولاشك أن هذا التماثل فى المبادىء الأساسية جعل دعاة الشيعة يَجدّون فى جذب المتصوفة فكانوا يتسترون بالزهد ويظهرون بمظهر الصوفى الغارق فى تأملاته[8] .

انتشــار التشيع فى الأناضول قبل ظهور العثمانيين :

لا غرو بعد ذلك أن نرى التشيع وقد شاع فى الأناضول رغم حرص حكام السلاجقة وعلماء الشريعة على مقاومته ، إذ كان من اليسير على غلاة المتصوفة أن يتحولوا إبان القرنين التاسع والعاشر الهجريين إلى الشيعة .

وإذا تتبعنا أهم المسالك والدروب التى نفذ منها التشيع إلى الأناضول لوجدنا أنها تتمثل فى الآتى :

١ – الطرق الصوفية المنحرفة : كالبابائية والبكتاشية والقلندرية والكبروية التى أعلنت عن تشيعها رسمياً .

٢ – الوضع السياسى لحكام الدولة السلجوقية فى الأناضول كمعارضين لأبناء عمومتهم فى إيران والعراق مما حدا بكثير من الشيعة والحشاشين أن يرحلوا إلى الأناضول .

٣ – تقرب المغول أثناء احتلالهم الأناضول إلى الشيعة باعتبارهم العنصر المعارض للحكام السلاجقة ، حتى لقد أعلن تيمورتاش الحاكم المغولى نفسه مهديا(٩) .

نخلص من كل ذلك إلى أن ظاهرة التشيع إنما هى دخيلة على الأناضول ، وقد تسربت مبادىء التشيع فى وقت مبكر قبل قيام الدولة العثمانية ، ولكن الشيعة لم يعلنوا عن أنفسهم رسميا آنذاك بل كانوا فى طور التشرنق ، ينتظرون الفرصة المواتية للإعلان عن أنفسهم .

الباطنية والبابائية :

كثر أتباع الباطنية والبابائية فى الأناضول إبان القرنين السادس والسابع الهجريين ، خاصة فى شرق الأناضول ووسطه ، حيث تقطن القبائل التركمانية فى المناطق الجبلية الوعرة البعيدة عن النفوذ السياسى والدينى للحكومة السلجوقية ، وفى حديث المفكر التركى كوبريلى زاده محمد فؤاد (١٣٠٨ – ١٣٨٦ هـ) ما يوضح لنا أسباب تمرد هذه القبائل ويعرفنا بملامح حياتها الدينية :

« إن إسلام هؤلاء التركمان لم يكن سنيا خالصا كإسلام أتراك المدن ولكنه كان ملفقا من التقاليد الوثنية التركية القديمة ومن عقائد غلاة الشيعة ... وكان مشايخ هؤلاء التركمان وباباواتهم – كما كانوا يلقبون – يتعرضون بسبب قيافتهم العجيبة وعاداتهم المنافية للشرع ، وحياتهم المنحلة التى تذكر بشامانات الترك القدماء – لحملات شديدة من الصوفيين السنيين ، ولكنهم كانوا مع هذا هم المنظمين والمسيطرين على الحياة الروحية فى القرن وبين العشائر ويرجع أصل هذه الحركات إلى الطرق القلندرية واليسوية لما فى الأولى من غرابة وبدع وشيعية »(١٠) .

زادت الهوة اتساعا بين هذه العشائر وكافة المسلمين وساعد على اتساعها التقاء أهداف الصليبيين والأرمن والمغول فى بث الفرقة بين المسلمين حتى يتسنى طردهم من الأناضول ، وأى فرقة أشد من أن يتشرذم المسلمون إلى فرق وشيع يغتال بعضهم بعضا » إذ كانت حصن كيفا وآمد وماردين معقلاً من معاقل الخوارج الذين ظلت بقاياهم أثناء حكم الأراتقة(١١) وخاصة فى المناطق الجبلية ، وكانت ماردين وديار بكر وبلاد الأرمن الواقعة بين حدود تركيا وروسيا الحالية من معاقل اليزيدية أو عبدة الشيطان(١٢) ونتيجة لذلك كاد المسلمون فى الأناضول أن يلقوا نفس مصير المسلمين فى الأندلس ؛ فبينما كانوا يخوضون حربا ضد الفناء على يد الصليبيين كان أتباع هذه الفرق من جانب والباطنية من جانب آخر يقيمون المذابح الجماعية للمسلمين السنة باتفاق مع الأرمن(١٣) .

أما أخطر تلك الفتن قاطبة ، فتلك التى عرفت باسم البابائية . وقد أطلت برأسها فى أخريات حكم السلاجقة ، بزعامة من يدعى بابا إسحق ٦٣٨ هـ (١٢٤٠ هـ) ، وواضح من لقبه أنه كان من زعماء الصوفية المنحرفة من التركمان(١٤) وقد ادعى النبوة وأطلق على نفسه « بابا رسول الله » وكانت انطلاقته من إقليم كفرسود فى جبال طوروس وبدأ يدعو لنفسه فى جنوبى طوروس الشرقية وآماسيا وفى كل النواحى المحيطة بهما(١٥) وكان أتباعه يرتدون القلانس الحمراء (كما فعل القزلباشية فيما بعد)(١٦) وأردية سوداء(١٧) .

انتهز بابا إسحق فرصة انشغال السلطان السلجوقى كيخسرو الثانى (٦٣٤ - ٦٤٤ هـ) بقتال الصليبيين « فأمر أتباعه وكانوا كثيرين بين التركمان فثاروا فى مناطق كفرسود ومرعش ، وكان هؤلاء الأتباع مهيئين قبل صدور أمره بالثورة لأنهم كانوا يعلمون أنه سيعلن الجهاد - على حد قوله - فى يوم ما ، وانقضت جموعهم على المدن والقرى ومعهم النساء والأطفال وقطعان الماشية يحدوهم الطمع فى الغنائم والرغبة فى الجنة - كما أوهمهم بابا إسحق ، وبددوا شمل الجيوش السلجوقية التى خرجت للقائهم واستطاعوا أن يسيطرو على مناطق ملطية وطوقات وآماسيا ... واخيراً استطاع السلطان السلجوقى أن يقمع هذا العصيان قمعاً دامياً »(١٨) .

بيد أن إخماد فتنة المدعو بابا إسحق لا يعنى القضاء على البابائية كتيار اجتماعى وسياسى هدام ، بل استمر نشاط البابوات خفية ؛ يعاود الظهور كلما سنحت الفرصة بذلك ، ولم تنفك فتنهم تطل برأسها على فترات متباعدة طوال الحكم العثمانى : تارة باسم الطورلاق وأخرى باسم الصماونالى وثالثة باسم القلندرية .

ولئن اختلفت أسماؤها أو أشكالها فالغاية عند مثيريها واحدة ؛ ألا وهى هدم النظام الاجتماعى والسياسى القائم على مبادىء الشرع الحنيف والتحلل من مبادئه .

نخلص من هذا العرض إلى النتائج التالية :

١ – جاءت البدع والفرق الضالة إلى الأناضول بمجىء القبائل المهاجرة من خراسان وما وراء النهر .

٢ – وجدت هذه البدع رواجاً بين عشائر التركمان فى شرق وجنوبى الأناضول لأسباب تراثية وبيئية .

٣ – من خلالها تسربت مبادىء الشيعة .

٤ – اتفقت أهداف هذه الفرق والشيعة عند هدم النظام الاجتماعى والسياسى للمسلمين .

هوامش الفصل الأول

(١) Togan, Zeki velidi, Umumi Türk Tarihne Giris, Istanbul, 1981, 3.bs., s. 33

لمزيد من التفاصيل انظر :

احمد كتابجى ، فضائل الترك فى أدب الجاحظ ، بيروت ، ١٣٧٩ .

ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، جـ ٩ ، الحداث ٤٣٨ هـ

(٢) على الشابى ، الشيعة فى إيران ، تونس ، ١٤٠٠ هـ ، ص ١٣٨ .

(٣) عبد النعيم حسنين ، السلاجقة فى إيران والعراق ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ١٣ .

(٤) يتضح ذلك فيما نقلناه عن ابن الاثير :

« فى هذه السنة (٤٤٠ هـ) غزا إبراهيم اينال الروم فظفر بهم وغنم وكان سبب ذلك أن خلقا كثيرا من الز بما وراء النهر قدموا عليه ، فقال لهم : بلادى تضيق عن مقامكم والقيام بما تحتجون إليه والرأى عندى أن تمضوا إلى غزو الروم وتجاهدوا فى سبيل الله وتغنموا وأنا سائر على إثركم» (الكامل ، نفس الجزء ، ص ٥٤٧) .

(٥) Köprülüzade, M. Fuat, Türk Edebiyatinda Ilk Mutasaviflar, Ankara, 1976, 3.bs., s.18

(٦) منذ القرن السابع الهجرى والحروب لا تنقطع فهى تارة بين السلاجقة والبيزنطيين وأخرى بين السلاجقة وابناء عمومتهم أو اخوتهم واخيرا بينهم والمغول .

(٧) السيد حسين نصر ، الصوفية بين الامس واليوم ، تعرف كمال خليل اليازجى عن على الشابى ، سبق ذكره ، ص ١٧٩ .

(٨) يحيى بن حمزة العلوى ، الإفحام لأفئدة الباطنية الطغام ، تحقيق فيصل بدير عون وآخرون ، الاسكندرية ، ١٩٧١ ، ص ١٠ .

(٩) باختصار عن : Hizmetli, Sabri, Osmanlilardan önce Anadoluda Siilik Problemi, I.I.E.D. S.5 - Ankara 1982

(١٠) محمد فؤاد كوبريلى زاده ، قيام الدولة العثمانية ، تعرف أحمد السعيد سليمان القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ١٧٠ - ١٧١ .

(١١) بنو ارتق : حكموا فى ديار بكر وحصن كيفا وآمد وماردين وخرتبرت . لمزيد من التفاصيل انظر :

أحمد السعيد سليمان ، تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الاسر الحاكمة ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، جـ ٢ ، ص ٣٥٠ .

(١٢) Turan, Osman, Dogu Anadolu Türk Devletleri Tarihim Istanbul, 1973, s. 225-226

(١٣) Osman Turan, a.g.e., s. 76

(١٤) من مظاهر الاثر الشيعى فى الطرق الصوفية فى الاناضول اطلاق هذا اللقب على زعماء الشيعة فى حراسان فى القرن السابع الهجرى وعرف من بينهم بابا الياس (Hizmetli, Sabri, a.g.e.)

(١٥) دائرة المعارف الإسلامية ، مادة البابائية .

(١٦) القزلباشية اى ذوى القلانس الحمراء وقد اطلق هذا اللقب على شيعة الاناضول وبعض مناطق ايران .

(١٧) دائرة المعارف الإسلامية ، نفس المادة .

(١٨) محمد فؤاد كوبريلى زاده ، المرجع السابق ، ص ٨٢ – ٨٣ .

الفصل الثانى

قيام الدولة العثمانية وجهادها الإسلامى فى الأناضول

انفرط عقد دولة السلاجقة فى الأناضول على يد المغول فى أواخر القرن السابع الهجرى واقتسم حكام الأقاليم وأمراء الحدود أراضيها ، وكان عثمان الأول رئيسا لإحدى العشائر التركية القاطنة على الحدود الغربية لدولة السلاجقة ، ثم تبوأ منصب أمير حدود فى عهد السلطان كيخسرو الثالث (٦٦٣ - ٦٨٢ هـ) .

ولا يتسع المجال لذكر تفاصيل الخطوات التى مرت بها هذه العشيرة لتصبح إمارة حدودية لدولة السلاجقة ، ولا لذكر الآراء المتباينة حول نسبها إلى بطون الأوغوز وحول تاريخ نزوحها إلى الأناضول، ولكن يمكن القول بأن ثمة عوامل أسرعت بنمو هذه الأمارة ، لتتبوأ مكان الصدارة من جيرانها وتصبح دولة فى مطلع القرن الثامن الهجرى ، ولعل أهم هذه العوامل :

١ - غلبة العنصر التركى المسلم فى منطقة متاخمة للحدود البيزنطية .
٢ - ضعف الإمارات التركية الأخرى وتناحرها[1] .
٣ - ضعف دولة بيزنطة وانشغالها فى حروب مستمرة مع الدول البلقانية .
٤ - انقسام العالم الإسلامى إلى دويلات صغيرة متناحرة كانت أقواها دولة المماليك فى مصر والشام .

٥ – أما أهم العوامل قاطبة فقد كان حرص الحكام العثمانيين على بناء دولتهم على أسس إسلامية من البداية وكانت أهم مظاهر هذا الحرص :

(١) وصية الأمير عثمان – وهو على فراش الموت لابنه أورخان (٧٢٦ – ٧٦١ هـ) قائلاً : « عليك يابنى بالإلتزام بالشرع الشريف والتشاور مع أربابه فى كل ما أنت مقدم عليه ، وعليك بإكرام الناس وتقديرهم حق قدرهم وتوقير العلماء منهم ، فخير الناس أنفعهم للناس ، وعليك بتعظيم أمر الله والرحمة بخلقه والجهاد فى سبيله وإعلاء كلمته »[٢] .

(٢) حين استقل أورخان بدولته وضرب سكتها فى ٧٢٧ هـ حرص على أن تكون هذه السكة إعلانا رسمياً عن إسلامية الدولة ، إذ كتب على أحد وجهيها « لا إله إلا الله محمد رسول الله » تحيط بها أسماء الخلفاء الراشدين الأربعة وعلى الوجه الآخر اسم اورخان .

(٣) حرص اورخان على أن يكون جيشه أداة حرب وحكم معا ، فعين القضاة والمفتين وكانوا يسيرون فى ركابه ويستفتيهم فى كل أمر ويقضون بين الناس فى كل مصر يحلون به وقد ظل منصب « قاضى عسكر » من المناصب المرموقة طوال الحكم العثمانى . كذلك المفتى الذى كان يُستفتى فى كل خطوة تخطوها الدولة .

(٤) تطبيق المفهوم الإسلامى للدولة من حيث عدم الفصل بين الدين والدولة ، فلم يلجأ الحكام إلى تجزئة الشريعة أو الفصل بين الحق والحقيقة بل كفلوا للإنسان حريته المسئول عنها أمام الله وكانت طاعة أولى واجبة ما داموا ملتزمين بأحكام الله[٤] .

(٥) التخلق بالأخلاق الإسلامية ، فكان لسياستهم العادلة وتسامحهم الدينى أبعد الأثر فى إقبال الأعداء من النصارى على الدخول فى الإسلام ومن ثم الخدمة فى الجيوش العثمانية ويكفى هنا أن نستانس برأى المستشرق الإنجليزى جيبونز (Gibbons) الذى قال فى عثمان :

« سرعان ما كان أعداؤه يتحولون إلى أصدقاء ، يخدمونه ويستمرئون خدمته ، فقد اعتنق آل ميخائيل وآل ماركوزو الإسلام بعد طول صداقتهم مع

عثمان فأصبحوا يأتمرون بأمر قادته وهم أصحاب الأمجاد العسكرية التى تفوق ما لعثمان نفسه ، لقد كان الرجل غيوراً على دينه بقدر ما كان متسامحا »[٥] .

قامت الدولة العثمانية فى دار حرب ، وتمرس أهلوها على غزو الأراضى البيزنطية ولذا لم يكن بمستغرب أن تستظل دولتهم راية الجهاد ، فوضعوا نصب أعينهم التوسع على حساب الأراضى البيزنطية وليس على حساب جيرانهم من الإمارات التركية الأخرى رغم ضعفها .

فتح مدينة بورصة عام ٧٢٦ هـ :

حين شرع العثمانيون يفتحون أراضى بيزنطية كان جزء منها يقع فى قارة آسيا بينما يقع الآخر فى أوروبا وكانت العاصمة القسطنطينية تتوسط الجزأين ، أما مدينة بورصة فقد كانت أهم مدن الجانب الآسيوى إن لم تكن أهم مدن الأناضول قاطبة ، لموقعها الجغرافى وأهميتها التجارية .

ولم يكن فتحها بالأمر اليسير فرغم استيلاء العثمانيين على القلاع المحيطة بها استمر حصارهم لها ثمانى سنوات ، وقد جنى العثمانيون ثمرة تسامحهم الدينى حين أفشل ميخال محاولة الاغتيال التى كان قد دبرها الإمبراطور ضد الأمير عثمان ، وحين سلم أفرنوز مفاتيح قلعته المشرفة على مدينة بورصة إلى أورخان وأعلن الرجل إسلامه وأصبح أحفاده فيما بعد من أشد المناصرين للإسلام فى أوروبا[٦] عندئذ سقطت المدينة فى يد اورخان (٧٢٦ هـ/ ١٣٢٦ م) . وبمقتضى إتفاق التسليم سمح اورخان لأهل المدينة أن يغادرها بأمتعتهم وأموالهم . وكان حرص العثمانيين على تطبيق هذه المبادىء الإسلامية السمحاء سبباً فى إقبال سكان كثير من المدن البيزنطية على أورخان يعلنون إسلامهم وولاءهم مثلما فعل أهل إزنيق عام ٧٣١ هـ وأزميت عام ٧٣٨ هـ .

وفى ختام حديثنا عن نشأة هذه الدولة الإسلامية نود الإشارة إلى أن العثمانيين حين شرعوا ينظمون أمور إدارتهم لم تكن جعبتهم خاوية من الأسس الحضارية اللازمة لذلك ، فلهم من النظم الإدارية إرث عريض تمتد جذوره إلى سلاجقة إيران والعراق والعباسيين أى أن هذه النظم كانت إسلامية الأصول ،

رغم القليل الذى أخذوه عن بيزنطة .

وهكذا لم يكد ينتصف القرن الثامن الهجرى حتى كانت قد أرسيت دعائم دولة شسلامية فتية ، قيض لها أن تتسلم لواء الجهاد الإسلامى فى الأناضول فكان جهادها امتدادا لجهاد المسلمين فى صدر الإسلام والعهد الأموى فالعباسى – على يد الحمدانيين – فسلاجقة الروم ، لكن جهاد العثمانيين لم يقف عند حدود الأناضول بل تعداه إلى البلقان .

هوامش الفصل الثانى

(١) لا يقل عددها عن ست عشرة إمارة من أهمها : بنو قراسى وبنو صاروخان وبنو آيدين وبنو منتشا وبنو قرامان وبنو جاندار وبنو ذى لقادر . زار ابن بطوطه بعض هذه الامارات ووصفها وتحدث عن ملوكها انظر :

ابن بطوطه ، ابو عبد الله بن إبراهيم اللواتى ، رحلة ابن بطوطه ، بيروت ، ١٩٧٣ ، ص ٣٨٣ .
ولمزيد من التفاصيل ايضا انظر :

أحمد السعيد سليمان ، تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، جـ٢ ، ص ١٣٧ — ١٥٢ .

(٢) جودت ، احمد جودت ، تاريخ جودت ، ترتيب جديد ، استانبول ، ١٣٠٢ ، جـ١ ، ص ٢٨ .

(٣) Uzunçarsili, Ismail Hakki, Osmanli Tarihi, Ankara, 1972, C.I.S. 125

(٤) Hulusi, Yavuz, Yemen'de Osmanli Hakimiyeti, Istanbul, 1984, S. 170-171

(٥) Gibbons, Herbert Adams, The Doundations of Ottoman Empire, London, 1968, P. 52-53

(٦) Uzunçarsili, Ismail Hakki, Osmanli Tarihi, Ankara, 1972, C.I.S. 110

الفصل الثالث

الوثبة الإسلامية الأولى وانتكاساتها

توالى سقوط مراكز بيزنطه ومدنها الحصينة فى يد العثمانيين حتى لم يعد لها فى الجانب الآسيوى سوى بعض القلاع الصغيرة ونصف مدينة القسطنطينية وشريط ساحلى على بحر إيجه ، أما الجانب الأوروبى فقد ظل العثمانيون يرنون إليه عبر الخليج دون أن يجدوا الجرأة الكافية لعبور هذا الخليج إلى الضفة الأوروبية . ثـم واتتهم الفرصة حين بعث امبراطور بيزنطة مستنجدا بأورحان ضدمناوئية وعلى رأسهم ملك الصرب .

عبر الجيش العثمانى إلى البلقان متلمسا مواضع الضعف فيه ، مستكشفا مراكزه الاستراتيجية . فى الواقع لم يستفد الامبراطور كثيرا من النجدة العثمانية فقد لقىْ عدوه الصربى حتفه وهو فى الطريق إليه بينما كانت فائدة العثمانيين عظيمة فقد استولوا فى عودتهم إلى الأناضول على شبه جزيرة كَليبولى (٧٥٧ هـ) التى كانت تشرف على مضيق الدردنيل وتمثل رأس جسر إلى البلقان ، وكانت تلك أولى خطوات العثمانيين إلى البلقان بل وأهمها إذ فتحت لهم الطريق إلى أوروبا فيما بعد بحيث توالت فتوحاتهم فيها وكانت على شكل وثبات ثلاث يمكن تقسيمها على النحو التالى :

الأولى : قبل فتح القسطنطينية .
الثانيـــة : فتح القسنطينية وما تلاه من فتوح فى البلقان .
الثالثـة : الوصول إلى قلب أوروبا وفتح المجر .

العثمانيون فى البلقـــان :

كانت الأوضاع السياسية فى شبه جزيرة البلقان من العوامل المساعدة للعثمانيين على فتوحاتهم فيه، إذ كان من بين القوى السياسية الحاكمة آنذاك ما يعيش طور الاحتضار مثل بيزنطه أو تعيش فى صراع مرير كالحال بين الصرب والبلغار أو كلاهما مع بيزنطه ، أو بين دول البلقان قاطبة والمجر التى كان ملكها لودفيج الكبير (١٣٤٢ - ١٣٨٢ م) يسعى جاهداً لنشر المذهب الكاثوليكى بالقوة فإذا أضفنا إلى كل هاته الصراعات صراعاً أكثر شمولاً وهو الصراع التقليدى بين الكنيستين الشرقية فى القسطنطينية والغربية فى روما أدركنا إلى أى مدى كان البلقان فى أتون مستعر . بيد أن هذه الصراعات لم تكن لتحول دون تجمع هذه القوى المتناحرة لتكون جبهة واحدة كلما دعا داع الحرب ضد العثمانيين .

تولى السلطان مراد الأول (٧٦١ - ٧٩٢ هـ) الحكم وللدولة العثمانية من أسباب القوة ما يمكنها من العبور إلى البلقان ، فوضع نصب عينيه تحقيق هدفين :

١ - الحصول على قواعد حصينة تُيسِّر الانطلاق إلى أوروبا .
٢ - إجهاض محاولة البيزنطيين لعقد تحالف صليبى ضده ونقل ميدان الحرب إلى البلقان .

وقد كان للسلطان مراد ما أراد حين استطاع فتح مدينة ادرنه عام ٧٦٣ هـ ذات الموقع الاستراتيجى الهام وأعقبها بفتح فيليبه التى على استقامتها وبذا يكون قد رسم خطا يمنع وصول أى إمداد يصل من وسط أوروبا إلى بيزنطـه التى استنجدت بالدول الأوروبية فأنجدتها بجيش جرار يضم الصرب والبولغار والمجر وروما ، والتقى الجمعان فى موقعة عُرفت فى المصادر العثمانية بـ « صرب صنديغى » (٧٦٦ هـ) وصفها المورخ الانجليزى بقوله :

« هزمت الجيوش العثمانية فى البداية وبات المنتصرون ليلتهم يتبادلون الانخاب

ابتهاجاً بالنصر وإذا بالجند العثمانيين يبرزون لهم من بين الأشجار الكثيفة مهللين مكبرين وأعملوا فيهم الطعان حتى فرقوا جمعهم »[1] .

بعد ذلك نقل العمثمانيون حاضرة بلادهم إلى أدرنه ، وتوالت عليهم السفارات والوفود الأوروبية عارضة الصداقة وعدم الاعتداء ودفع الجزية ، وكلما نقض الجانب المسيحي وعدا قطعه على نفسه فى هذه الاتفاقات حاربه العثمانيون ، وكانت كل حرب من هذه الحروب تعنى مزيدا من التوسع الإسلامى فى البلقان حتى وصل العثمانيون إلى صوفيا عاصمة البولغار وحاصروها وسقطت فى أيديهم بعد ثلاث سنوات ، وتحالفت الجيوش الأوربية ضد الجيش العثمانى ، لكن النصر كان حليف العثمانيين فى وادى « قوص اووه » (٧٩٢ هـ) فى المعركة التى عرفت بنفس الاسم والتى انتهت باستشهاد السلطان مراد الأول .

حين تولى السلطان بايزيد الأول (٧٩٢ - ٨٠٥ هـ) ، كانت القسطنطينية محاطة بالعثمانيين من كل جانبه ولذا بات فتحها من أهداف السلطان بايزيد ، بيد أن الإمارات التركية فى الأناضول لم تنفك عن إثارة القلاقل والاعتداء على الأراضى العثمانية مما كان يضطره إلى حربها وهو فى حرج أمام جنده من قتال المسلمين[2] بيد أن هذه الحروب لم تمنع بايزيد من ملاقاة الصليبيين فى أكثر من موقعة فى البلقان وظل فى حركة دائبة بين الجانبين ، لذا عرف بالصاعقة .

حاصر بايزيد مدينة القسطنطينية مرتين ولم يتمكن من فتحها :

فى الأولى جاءته الأنباء بتحالف الصليبيين واقترابهم منه مما جعله يفك الحصار ويكتفى بإبرام صلح مع الإمبراطور البيزنطى بشرط مضاعفة الجزية وبناء مسجد ومحكمة شرعية فى المدينة ، ثم استدار ليلتقى بالجموع الصليبية فى موقعة نيكَوبولى (٨٩٨ هـ) التى انتصر فيها عليهم، وكسر شوكة المجر وكان هذا الانتصار دافعاً لأن يبعث إلى الخليفة العباسى فى القاهرة طالبًا منه الإنعام بلقب سلطان فأنعم عليه بلقب « سلطان الروم والعرب »[3] .

وفى الثانية شدد بايزيد الحصار على المدينة ، وأصبح قاب قوسين أو أدنى من الفتح المبين ، لاسيما وأن جيوش أوروبا مازالت تلعق جروح هزيمة

نيكوبولى ، بيد أن نذر الخطر بدأت تلوح من الشرق فى هذه المرة ، بما يصيب الفتوحات الإسلامية بأولى الانتكاسات ويصيب الدولة العثمانية ذاتها فى مقتل .

لقد طارت الأنباء إلى بايزيد باحتلال علاء الدين القرامانى مدينة أنقره ثم اقتراب تيمورلنك قائد الموجة المغولية الثالثة الذى كان قد اجتاح العراقين وتوجه الشرق قاصدا الهند لكن اتصالاته مع الجنويين والقشتاليين ودعوتهم له إلى الأناضول شجعته على أن يلوى عنان جواده إلى العثمانيين(٤) ولقى تيمورلنك كل مساعدة من الأمراء التركمان حتى وصل إلى أنقره حيث التقى بجيش بايزيد الذى فك حصاره عن القسطنطينية حديثا فكان النصر حليف تيمورلنك فى (٨٠٥ هـ) .

ضربة تيورلنك للعثمانيين ونتائجها :

كانت هزيمة تيمورلنك للعثمانيين قاسية لكنها لم تكن قاتلة ، إذ لم يكن أقسى على دولة من أن يقع قائدها أسيراً ويموت فى الأسر ويصبح أبناءوه الأربعة حكام أقاليم من قبل الغازى المغولى وتعود كل الأراضى التى فتحها العثمانيون ورووها بدمائهم إلى أصحابها الأوَل سواء كانوا مسلمين من الأمراء التركمان أو مسيحيين من البلقان . ورغم كل ذلك كان لغزوة تيمورلنك هذه من الآثار الإيجابية ما لا ينكره المؤرخون ومن أهم هذه الآثار :

١ – الإسراع بتتريك الأناضول وأسلمته بموجات الهجرة المتعاقبة من المسلمين الفارين أمام جحافل المغول القادمة من الشرق ، بيد أننا نود الإشارة هنا إلى أن هذه الهجرات لم تكن خيرا كل الخير على الأناضول ومن فيه ، بل كانت تضم ممثلى الارستقراطية الإيرانية وزعامات الطرق الصوفية المنحرفة(٥) ممن كانوا يؤمنون بتفوق العنصر الفارسى وبأنهم ورثة السلاجقة الشرعيون فى الأناضول ، مما جعلهم مصدرا للقلاقل والفتن بل إنهم نقلوا الفتن إلى غرب الأناضول ثم البلقان عند فرارهم أمام تيمورلنك ولجوئهم إلى الغرب .

٢ – قدم تيمورلنك خدمة للعثمانيين من حيث لا يدرى باستيلائه على ميناء أزمير الذى كان فى يد البيزنطيين وامتنع على العثمانيين .

استعادة الدولة وحدتها ومواجهتها للفتن :

انقشعت غمامة تيمورلنك عن الأناضول فجأة كما جاءت ، لكن بعد مضى عشرة سنوات باتت الدولة العثمانية خلالها مقطعة الأوصال ، ورغم ذلك لم يمض طويل وقت حتى استعادت الدولة نشاطها وكان ذلك على يد السلطان محمد جلبى الذى تمكن من التغلب على إخوته الأربعة الطامعين فى العرش ، وتمكن من استعادة ما فقدته الدولة العثمانية أثناء غزو تيمور ولم يكد يسترد أنفاسه حتى أطلت فتنة بدر الدين برأسها وكادت أن تعصف بالوجود العثمانى مرة أخرى .

فتنة بدر الدين : يهودية ، علوية ، صليبية :

تعد هذه الفتنة أولى فتن الباطنية التى يواجهها العثمانيون ولنتابع أحداثها من خلال ما كتبه المؤرخ التركى إسماعيل حقى أوزون جارشيلى :

« ادعى الشيخ بدر الدين أنه من صلب السلطان السلجوقى علاء الدين كيقباد الثالث (٦٩٨ - ٧٠١ هـ) ، وكان جده ملازماً فى الجيش العثمانى أثناء فتوحات البلقان حيث تزوج ابنه من ابنة قائد رومى كان حاكماً لقلعة ديموطيقا (فى اليونان حالياً) ، وجاء بدر الدين ثمرة لهذا الزواج وولد فى قلعة صامونا بالبلقان وإليها نسب . حصل بدر الدين تعليمه لأولى فى مدينة بورصة ثم ارتحل إلى قونيه ومنها إلى الشام فالقاهرة حيث تعلم التصوف على يد الشيخ حسين الأخلاطى الذى أمره بالرحلة إلى تبريز ، لما وجد فيه من حسن استعداد وقابلية للتعلم وظل بدر الدين فى تبريز فترة طويلة عاد بعدها إلى القاهرة ولم يلبث أن غادرها لوفاة شيخه .

طفق بدر الدين عائداً إلى الأناضول وفى عودته بدأ يطوف معاقل التركمان العلويين فى قرامان وكرميان وآيدين وتيره داعياً لمذهبه الجديد .. »[٦]

كان مذهب بدر الدين امتداداً للمزدكية التى شاعت فى إيران ابان القرن الخامس الميلادى وظلت سبباً لكثير من الفتن طوال العصر الإسلامى حتى العهد الأموى[٧] . أما أساس هذا المذهب فهو الشيوع بين الناس أى شيوع كل شىء أو أى شىء حتى الأديان يجب أن تكون ملكا للجميع ولا فرق عنده بين تعبد يهودى أو صلاة مسلم بل وصل به الأمر إلى حد الدعوة بأن يؤدى أتباع أى دين

مناسك الدين الآخر . وهكذا أراد بدر الدين بآرائه الضالة هذه أن يجذب إليه القلوب بدعوى أنه ينشد المساواة بين الناس جميعاً على اختلاف أديانهم .

على أية حال ظل بدر الدين يدعو الناس سرًا ويجمعهم حوله واستغل النزاع القائم بين محمد جلبى وأخوته على العرش فانتقل إلى ادرنه حيث الأمير موسى جلبى فتقرب بدر الدين إلى الأمير الذى أولاه اهتمامه وعينه قاضيًا مما أدى إلى تدعيم مركزه وانتشار نفوذه بين الناس ، فبدأ يتطلع إلى الحكم العثمانى . بيد أن انتصار محمد جلبى على أخوته – كما أسلفنا – ودخوله أدرنه عصف بآمال بدر الدين فزاد من نشاطه ووصل أمره إلى السلطان الذى عاقبه بنفيه إلى ازنيق وتحديد اقامته فيها .

لكن هذا الإجراء لم يقلل من نشاط بدر الدين إذ كان على صلة بمن يدعى بوركلوجه مصطفى (من أصل بلقانى) وآخر يهودى فى الأفلاق يدعى طورلاق كمال وكان الأخير يدعو لمذهب يتفق ومذهب بدر الدين . بعد أن اطمأن الجميع إلى كثرة الاتباع استأذن بدر الدين فى الذهاب إلى الحج فأُذِن له ، وخرج من ازنيق إلى مقدونيا التى وصلها سرا ، وجمع أتباعه وبدأ يوجه ضرباته إلى القوات الحكومية ، واستطاع تحقيق بعض الانتصارات فى البداية لكن لم يطل به الانتصار إذ سرعان ما قُبض عليه واستصدر السلطان فتوى بشنقه وبذا أخمدت فتنته »(٨) ..

يتضح بعد هذا العرض الموجز لفتنة بدر الدين أن ثمة صلة وثيقة بين غلاة العلوية وغلاة الصوفية واليهودية والصليبية ، وأن ثمة دوراً لتبريز فى تصدير الفتن ، وأن الجميع اتفقوا – رغم بغد البون بينهم – عند هدف القضاء على الدولة العثمانية .

وهكذا قوبلت الوثبة الإسلامية الأولى بمعوقين :

أحدهما مغولى يحلم بتكوين امبراطورية من العناصر الفارسية فاجتاح الأراضى العثمانية وقوض دولتها بينما كانت تدق أبواب القسطنطينية ، والثانى تمثل فى فتنة علوية ذات عناصر يهودية وصليبية كادت أن تعصف بالدولة العثمانية وهى لم تقم بعد من كبوتها .

هوامش الفصل الثالث

(١) Creasy, Edward S., History of Ottoman Turks, Beyrut, 1968, P.23

(٢) Show, Stanford, History of Ottoman Empire and Modern Turkey, Cambridge Press, 1976, V.I, P.31.

(٣) Donismend, Ismail Hamdi, Izahli Osmanli Tarihi Kronolojisi, Istanbul, 1971, C.I, S. 104.

(٤) عبد العزيز نوار ، الشعوب الإسلامية ، سبق ذكره ، ص ٣٧ .

(٥) Show, Ibid, P. 33

(٦) Uzunçarsili, Ismail Hakki, a.g.e. S. 362

(٧) حسين مجيب المصرى ، من ادب الفرس والترك ، القاهرة ، ١٣٦٩ هـ ، ص ٤٢٢ .

(٨) Uzunçarsili, Ismail Kakki, a.g.e., s. 361-363

الفصل الرابع

الوثبة الإسلامية الثانية ومحاولة إجهاضهـــا

عادت عجلة الفتوحات الإسلامية فى البلقان سيرتها الأولى فى عهد السلطان مراد الثانى (٨٢٤ – ٨٥٥هـ) الذى شملت فتوحاته كل أجزاء البلقان تقريبا على شكل مروحة : مقدونيا والمورة والآفلاق وبلغاريا والصرب والمجر والبانيا . ولم تقف القوى الصليبية موقف المتفرج أمام فتوحات العثمانيين بل تحالفت أكثر من مرة وكان أكثرها حشدا فى فارنه إذ واجه العثمانيون كل جيوش أوروبا محتشدة وكان النصر حليفهم أيضا ثم جاءت المعركة الأخيرة فى وادى (قوص اووه) ورغم انتصار مراد الثانى أيضا فى ٨٥٢ ، لم يستطع الجيش العثمانى أن يكسر من شوكة القائد المجرى العنيد هونيادى ولا أن يحد من غرور اسكندر بلك حالكم البانيا فظلت هاتان القوتان ردحاً من الزمان شوكة فى حلق العثمانيين فى البلقان بيد أن المعارك التى خاضها السلطان مراد الثانى حققت عدة أهداف :

١ – أعادت للجيش العثمانى رهبته فى أوروبا : فسارع من لم يخضع للسيادة العثمانية إلى عقد اتفاق سلام معها مثل المجر وألبانيا .

٢ – كشفت شدة الخلافات المذهبية بين الدول الأوروبية ، إذ لم تقدم شعوب البلقان المساعدات اللازمة للجيش الصليبى المقاتل ضد العثمانيين وخاصة فى جنوب البلقان .

٣ – أعادت القسطنطينية إلى عزلتها غن أوروبا .

وكان تحقيق هذه الغايات من أهم العوامل التى ساعدت محمد الفاتح (٨٥٥ – ٨٨٦ هـ) فيما بعد على فتح القسطنطينية .

فتح القسطنطينية وأثره فى انتشار الإسلام :

تطلع المسلمون منذ فجر الإسلام إلى فتح هذه المدينة لما لموقعها الجغرافى من أهمية تجارية واستراتيجية ولما لمركزها الحضارى من مكان الصدارة فى العالم المسيحى .

وقد روى عن الرسول (ﷺ) أحاديث تدل على أهميتها عند المسلمين منها قوله ﷺ : « **لتفتحن القسطنطينية ولنعم الأمير أميرها ، ولنعم الجيش ذلك الجيش** »[1] ، وقد حاول المسلمون فتحها غير مرة ، وأستشهد تحت أسوارها الصحابى الجليل أبو أيوب الأنصارى ، لكن المدينة امتنعت على المسلمين كما امتنعت على المسيحيين من أعداء البيزنطة أيضا ، فالطبيعة حبتها بتحصينات طبيعية ؛ فهى تقع على مثلث هائل من المرتفعات الصخرية تشرف قاعدته على بحر مرمرة وضلعه الأيمن على خليج القرن الذهبى وضلعه الأيسر هو الجانب المتصل بالقارة الأوروبية . ولم يأل البيزنطيون جهدا فى بناء أسوار ضخمة تحيط بالمدينة من كل جانب ووصل بهم الأمر إلى إغلاق الخليج الذهبى بسلسلة حديدية ضخمة تصل الشاطىء بالشاطىء فإذا وضعنا فى اعتبارنا استماتة أهلها فى الدفاع عنها – خاصة بعد أن أدركوا أنه لا حليف لهم بين الدول الأوروبية – أدركنا إلى أى مدى كانت مهمة العثمانيين صعبة ومحفوفة بالمخاطر .

ولا يتسع المجال هنا لذكر الاستعدادات الحربية للحصار وقد استمرت ثلاث سنوات ، ولا لذكر أحداث الآلات الحربية التى جهز بها الفاتح جيشه ولا عبقرية الفاتح العسكرية فقد كتب الكثير فى هذا الموضوع ، ولكن نود الإشارة إلى أن هناك عوامل كثيرة ساعدت العثمانيين على إنجاز هذه المهمة الصعبة منها ما هو متصل بأسباب دولية كالتى ذكرنا مثل إحجام الدول الأوروبية عن تدعيم موقف بيزنطة والعلاقات الطيبة بين الفاتح والبلاد الإسلامية كالمماليك فى مصر والشام ، ومن العوامل ما هو متصل بالمدافعين عن القسطنطينية مثل استخدامهم لجنود مرتزقة من الألمان وغيرهم ممن كانوا معول هدم فى الحصار بدلا من أن يكونوا أداة تدعيم .

أما أهم العوامل قاطبة فهو المحرك الإيمانى لدى زمرة الفاتحين وإخلاصهم لمبدأ الجهاد فى سبيل الله ، ومهما تحدثنا عن هذا العامل ، فلن نفيه حقه ، بيد أن أمير الشعراء أحمد شوقى اختزله فى هذين البيتين :

قد جاءها الفاتح فى عصبة
من الأسود الركع السجد
رمى بهم بنيانها مثلما
يصطدم الجلمد بالجلمد[٢]

وكان دور القائد تعبئة هذا المحرك العقائدى وإشعال شرارته ، ولذا ضرب الفاتح – كدأب السلاطين العثمانيين الفاتحين جميعا – بخيمته وسط جنوده وما انفك يطوف بهم ويذكرهم بما روى من الأحاديث الشريفة التى تبشر بالفتح ، وعن لسانه يقول الشاعر محمد جلال (١٢٩٣ – ١٣٣١ هـ) فى ملحمة فتح استانبول :

سيروا أيها البواسل الغزاة
فهذا هو أمر الله
مزقوا العِدا إرباً فإن
من قدّر لى هذا الفتح هو الله[٣]

وللفاتح نفسه شعر يفيض إيمانا وعزما على الجهاد فى سبيل الله :

« لا أضمر سوى الامتثال لداعى الجهاد والفلاح
ولا غيرة عندى سوى غيرتى على الإسلام
إن مهمة الجند رجال الله تنحصر فى خدمة الحق (سبحانه)
إننى عازم على قهر الكفار وإبادتهم »[٤]

ونعرض مقتطفات من رسالتى البشرى اللتين بعث بهما الفاتح ليبشر شريف مكة المكرمة والسلطان المملوكى فى مصر والشام بفتح القسطنطينية لما فى هذه المقتطفات من دلالة على أن هذا الفتح الإسلامى المبين إنما تحقق نتيجة لإيمان

المهاجمين بأن الله مؤيدهم بنصر من عنده ، فيقول محمد الفاتح فى رسالة إلى شريف مكة :

« فازدحم أهل الإسلام وجاهد كل المجاهدين عن (من) البر والبحر حق الجهاد فقربوا من السور وصعد جم (جمع) كثير من الكماة الموحدين فوق منافذ جدرانها المندرسة من المنجنيق فدخلوا فى نفس هذه البلدة المتبركة المنورة بقدوم الموحدين بالتكبير والتهليل يوم الثلثا (الثالث) والعشرين من شهر جمادى الأولى »[٥] ثم يطلب دعاء العلماء وفقراء مكة المكرمة والمدينة المنورة وكل الحجيج فى عرفات . ويصف فى رسالته لسلطان المماليك فى مصر كيف كان حال جنوده الموحدين فى ساعة الوغى فيقول :

« وانتهينا إلى ما أشار إليه من مسيرة على القسطنطينية العظمى بعساكره الإسلامية وجنوده المحمدين ، فكانوا لها أصفادا وزلزلوا أرضها بجياد خيل وقفت صابرة فكانت أوتادا .. وهبت نسمات النصر على جيوشه فقيل ياخيل الله اركبى ويايد النصر اكتبى .. وقام الحرب على ساق وأضحى كل من الأعداء إلى حتفه يساق وهجرت سيوفهم الأغماد وأقسمن أنها لا تقر إلّا فى الرؤوس والأسنة أسرت وآلت أنها لا تروى ظمأها إلّا من دماء النفوس والسهام قد التزمت أنها لا تلج كنانينها إلّا من النحور ولا تغوص عن حنايا القسى بخبايا الأضلع إلّا لترفعها .. والدروع قد لزمت الأبطال قائلة لا نفارق الأعداء حتى تتلى سورة الفتح المبين »[٦] ثم يدعو لمن يوجه إليه الرسالة بقوله :

« وفزتم بقوله عليه الصلاة والسلام : (**ما أغبرت قدما عبد فى سبيل الله فتمسه النار**)[٧] وقوله ﷺ : (**إن الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض**)[٨] » .

على أية حال دخل المسلمون القسطنطينية مهللين مكبرين وأمر الفاتح جنوده بالكف عن السلب والنهب ، ونودى للصلاة وتحولت معظم الكنائس إلى مساجد وعلى رأسها كنيسة آيا صوفيا الشهيرة ، ولكى يؤمّن الفاتح هذا الانتصار كان عليه أن يُتْبَعه ببعض الجهود الحربية فى البلقان : فتوجه إلى شبه جزيرة المورة وأرغمها على دفع الجزية ٨٦٣ هـ/١٤٥٨ م ، وتوجه إلى الصرب والإفلاق فضمهما نهائيا إلى الدولة العثمانية ، وحارب المجر وحاصر مدينة بلغراد

التابعة لهم آنذاك – وأجبر البنادقة والألبان على توقيع اتفاقيات عدم اعتداء ، ثم استولى على بعض الجزر القريبة من السواحل العثمانية حتى لا تكون قاعدة للهجوم البحرى ومن أهمها جزيرة ديللى فى ٨٦٧ هـ/١٤٦٢ م .

كان لهذا الفتح من الآثار العسكرية والسياسية والاقتصادية ما جعل المؤرخين يَعدُّونه نقطة تحول فى مجرى تاريخ العالم ووضعه مؤرخو أوروبا حداً فاصلاً بين العصور الوسطى والعصور الحديثة ، وما يعنينا هنا هو أثره فى انتشار الإسلام .

فى الحقيقة أن الفتح العسكرى – فى حد ذاته – لا يمكن أن يؤت ثماره إلّا إذا أعقبته سياسة حكيمة تقوم على الترغيب لا الترهيب وهذا ما فعله محمد الفاتح ؛ فقد أعلن حرية ممارسة الشعائر الدينية وحرية التملك وضمان حقوق الملكية واستدعى القساوسة وأمرهم بانتخاب رئيس لهم يتولى شئونهم الدينية فانتخبوا أحد القساوسة الفارين من ظلم الأباطرة وكان مختبئا فى إحدى بقاع البلقان فاستحضره لهم[٩] ، وكان لهذه السياسة أثرها فى عودة من هجر المدينة منذ عهد الأباطرة وعاد معظمهم ليعلن إسلامه .

وشهدت السنوات التالية للفتح عمليات إشهار إسلام جماعية تحدث لأول مرة فى العهد العثمانى ، حين جاء « أهالى البوسنة إلى محمد الفاتح ليعلنوا إسلامهم ورغبتهم فى العمل بخدمة الدولة ، فسر السلطان بذلك وألحقهم بخدمة الجيش ومن الجدير بالذكر أنهم ظلوا على ولائهم للدولة العثمانية حتى النهاية »[١٠] .

وترسم الفاتح خطى أسلافه فى عملية التهجير والتوطين المنظّم فأرسل إلى ولاته بالأناضول يدعوهم لتهجير من يرغب من المسلمين إلى استانبول وفرض الهجرة – بصفة خاصة – على الصناع والحرفيين[١١] ، ولاشك أن سياسة التهجير هذه قد حققت عدة أهداف من أهمها :

١ – تطعيم الأمصار المفتوحة بالعناصر الإسلامية .
٢ – وتخفيف كثافة العنصر المسيحى فيها .
٣ – القضاء على العصبيات القبلية والإقليمية .

تحالف دولة الشاة البيضاء مع البنادقة والصليبيين :

لاشك أن سيادة الدولة العثمانية على الأناضول جعلها تتحكم فى معبر تجارى هام تنتقل من خلاله البضائع القادمة من الصين وفارس إلى أوروبا ، وكان البنادقة والجنويون هم الذين يقومون بدور المتسلم لهذه البضائع لتوزيعها فى أوروبا ، ورغم تحول جزء كبير من التجارة عن هذا الطريق بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح لم يفقد أهمية لدى الفرس والبنادقة لقربه من بلاد البلقان وأوروبا الوسطى ولقلة تكاليفه نسبيا .

ولنا عود للحديث عن هذا الطريق وأثره فى الصراعات الإقليمية فى المنطقة ، ويكفى الإشارة هنا إلى أن استيلاء الدولة العثمانية على القسطنطينية وسيطرتها على المضايق ومعظم سواحل البلقان وجزره الهامة وإعلان حكام القرم الطاعة والولاء للدولة العثمانية . كل ذلك حرم البنادقة والجنويين مما كانوا يحصلون من ضرائب ورسوم على البضائع الفارسية فجن جنونهم وراحوا يبحثون عن حليف لهم ضد الدولة العثمانية ووجدوا ضالتهم فى حاكم دولة الشاة البيضاء[١٢] الواقعة فى شرق الدولة وإمارة القرامانيين فى الجنوب الشرقى وكلاهما أصابه الضر أيضا إذ كانا يتحكمان فى ممرات هذه القوافل .

نما إلى علم محمد الفاتح اتفاق أوزون حسن حاكم دولة الشاة البيضاء مع الصليبيين فتوجه إلى قتاله وبالفعل التقى به فى موقعة (أوتلوق بلى) فى ٨٧٨ هـ / ١٤٧٣ م وهزمه وكسر شوكته لكن المؤامرة كانت تستهدف جر الجيش العثمانى إلى أقصى الشرق لتنقض الأساطيل الأوروبية على السواحل الغربية من الأناضول وبالفعل تشكل أسطول كبير من البنادقة والنابوليين والآراجون ، والقبارصة وفرسان يوحنا فى رودس واتفقوا مع القرامانيين الذين ساعدوهم من البر فأمطروا سواحل أنطاكيا وأزمير والروميلى بالقنابل ثم قاموا بعملية إنزال بين أنطاكيا وأزمير واحتلوا بعض القلاع وسلموا البعض الآخر للقرامانيين[١٣] . ولم يستفد المتحالفون شيئا وكان المستفيد هو محمد الفاتح الذى استطاع فى عودته القضاء على آخر بقعة مسيحية فى آسيا الصغرى وهى مملكة طرابزون المجاورة لدولة الشاة البيضاء ثم تفرغ للقضاء على القرمانيين وحلفائهم الصليبيين .

توفى السلطان محمد الفاتح عام ٨٨٦ هـ عن دولة قوية مرهوبة الجانب من العالم المسيحى ومؤهلة لتسنم مقام الزعامة فى العالم الإسلامى وهاهم بقايا مسلمى الأندلس يستنجدون بالسلطان الفاتح لإنقاذهم(١٤) ويبدو أن دولة المماليك فى مصر والشام وهى صاحبة الحق فى الزعامة الإسلامية حتى ذلك الوقت - بدأت تتململ قلقا على مكانتها فى العالم الإسلامى وقد ظهرت بوادر حقدها على الدولة العثمانية فى عهد بايزيد الثانى (٨٨٦ - ٩١٨ هـ) خلف محمد الفاتح .

هوامش الفصل الرابع

(١) أحمد بن حنبل ، المسند : ٤ ، ٣٣٥ .
والمزيد منها رواه نفس المصدر ، ٤ ، ١٩٣ والترمذى : فتن ، ٤٥ ، ٥٨ .
(٢) الشوقيات ، جـ٢ ، ص ٢٥ .
(٣) محمد جلال ، فاتح سلطان محمد ثانى ، استانبول ، ١٠٣٨ هـ ، ص ٢٤ .
(٤) Hulusî, Yavuz, a.g.e., S. 165
(٥) فريدون ، منشآت سلاطين ، غير مذكور مكان وتاريخ الطبع ، جـ١ ص ٢٣٩ .
(٦) نفس المرجع ص ٢٤٢ .
(٧) صحيح البخارى : جهاد ، ١٦ وقيل « من اغبرت قدماه ... » ، نفسه : جمعة ١٧ .
(٨) « إن فى الجنة مائة درجة ... » رواه البخارى : جهاده وتوحيد ، ٢٢ والنسائى : جهاد ، ٤٧ ، ٤٨ وأحمد بن حنبل : ٥ ، ٢٥٢ .
(٩) Uzunçarsili, Ismail Hakki, a.g.e., C.II, S. 153
(١٠) نفس المرجع السابق ، نفس الجزء ، ص ٨٤ / ٨٥
(١١) المرجع السابق ص ١٥٤ .
(١٢) دولة الشاة البيضاء ، عشيرة تركمانية اقامت دولة فيما بين آمد والموصل وحكمت من ٦٠٨ إلى ٩٦٤ هـ (للمزيد انظر : أحمد السعيد سليمان ، تاريخ الدول الإسلامية ، سبق ذكره ، جـ٢ ، ٨٢٥ .
(١٣) Danismend, Ismail Hamdi, a.g.e., C.I, S. 328
(١٤) عبد العزيز الشناوى ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، جـ٢ ، ص ٩٠٢ .

الفصل الخامس

جـذور الصراع الصفوى العثمانى

بدأ العثمانيون يجنون ثمار انتصاراتهم العسكرية والسياسية تجاه الدول الأوربية وقد ظهرت بواكير هذه الثمار فى عهد بايزيد الثانى (٨٨٦ هـ – ٩١٨ هـ) ويعبر عن هذا المعنى المستشرق الانجليزى تشارلز إليوت بقوله :

« لقد تغيرت نظرة الأوربيين إلى الأتراك فلم يعودوا يرون فيهم البرابرة الأجلاف غير المتفاهمين ، بل أصبحوا ينظرون إليهم نظرة احترام ويدعونهم إلى أراضيهم ويرحبون بالاتفاق معهم خاصنة بعد أن وجدوا عندهم من القيم الإنسانية والحضارية ما يماثل تلك التى كانت عند الإغريق والسلاف والألبانيين والرومان ، بل تمايز الأتراك على هؤلاء بالقوة والنشاط ووحدة الصف ، أضف إلى ذلك تواضع السلاطين »[١] .

تميز عهد بايزيد الثانى ببدء العلاقات الدبلوماسية مع أوروبا لكن جنوح العثمانيين إلى السلم كان مرتبطا بالتزام الطرف الآخر لذا لم تكن هذه الاتفاقيات لتمنعهم من القيام بتأديب البنادقة على سواحل البلقان والاستيلاء منهم على جزر : ليبانت ومودون ونافارين فى البحر المتوسط وميناء رودتسو على بحر الأدرياتيك ، وأدرك العمثانيون أهمية الأسطول فشرعوا يبنون قوتهم البحرية منذ ذلك العصر[٢] وقد دفعهم إلى هذا الاهتمام سببان رئيسيان :

١ – ظهور أهمية الأسطول حتى فى المعارك البرية وقد بدا ذلك واضحاً فى حربهم مع المماليك (٨٩٠ – ٨٩٥ هـ) .

٢ – تسرب الأسطول البرتغالى إلى مياه البحر الأحمر والخليج العربى وعجز أسطول المماليك عن الوقوف فى وجهه .

فى الوقت الذى بدأت فيه العلاقات السلمية مع دول أوروبا ، بدأت العلاقات العدائية مع دول العالم الإسلامى وربما يبدو ذلك غريبا لأول وهلة ، لكن إذا بحثنا فى الظروف والملابسات التى أحاطت بعلاقات الدولة العثمانية بجيرانها المسلمين لوجدنا أن العثمانيين كانوا مدفوعين حتما للاصطدام بالدولة الإسلامية الكبرى فى ذلك الوقت،وهى دولة المماليك فى مصر والشام ثم بالدولة الإسلامية الناشئة فى إيران وهى دولة الصفويين .

إن تاريخ العلاقات العثمانية المملوكية قديم قدم قيام الدولة العثمانية فلم يكن العثمانيون بمعزل عن العالم الإسلامى كما ذكرنا من قبل بل كانوا على علاقات وطيدة بالمماليك بصفة خاصة ورغم تحسن هذه العلاقات بينهما وتبادل الرسائل الطيبة ورغم التعاون الطيب بين الجانبين فى مواجهة البرتغاليين حين لبى العثمانيون استنجاد المماليك بهم فأنفذوا إليهم الخشب والمعدات اللازمة لبناء السفن[٣]. رغم كل ذلك كان التوتر يسود هذه العلاقات أحيانا بسبب إمارة بنى ذى لقادر (٧٤٠ ٩٢٨ هـ) وهى العازلة بين الدولتين ، إذ كانت تحتل خطا منحنيا يفصل بين وسط الأناضول وشمال الشام[٤] ، وكانت هذه الإمارة تستمد قدرتها على البقاء من قدرتها على مماشاة أحد الطرفين ، مما لا يخلو من إثارة الفتن بينهما واستمر الحال على هذا المنوال إلى أن قضى السلطان سليمان على هذه الإمارة فى ٩٢٨ هـ .

زادت العلاقات توترا فى عهد السلطان بايزيد الثانى مما أدى إلى أول صدام فعلى بين الدولتين الإسلاميتين العظميين – آنذاك – وكان لهذا الصدام سبب مباشر هو : استقبال المماليك للأمير جم أخى السلطان بايزيد ومنازعه على العرش العثمانى وإكرام وفادته وعدم تسليمه للسلطان حين طلب ذلك .

وآخر غير مباشر وهو :

خوف المماليك من أن تتبوأ الدولة العثمانية مكانتهم فى العالم الإسلامى ، حاصة بعد فتح القسطنطينية واستنجاد مسلمى الأندلس بمحمد الفاتح .

وقد زادت الأمور توترا فى العالم الإسلامى بظهور الدولة الصفوية فى إيران، وتطلع هذه الدولة إلى حكم العالم الإسلامى ونشر المذهب الشيعى بالقوة، ولكن كيف قامت هذه الدولة ؟ وما هى الدوافع الكامنة وراء تدخلها فى شئون الدول الإسلامية ؟ وما هى الأسباب التى دعتها إلى التطلع لزعامة العالم الإسلام ؟ وللإجابة على هذه التساؤلات علينا أن نلم بهذه الأمور :

١ – الأسس التى قامت عليها الدولة الصفوية .
٢ – المصالح الاقتصادية الإيرانية فى الأناضول .
٣ – استغلال العداء المذهبى لإثارة الفتن .

١ – الأسس التى قامت عليها الدولة الصفوية :

استطاع أحد زعماء الشيعة الاثنى عشرية فى أردبيل ويدعى صفى الدين الأردبيلى أن يجمع حوله رهطا من العشائر التركمانية حديثة العهد بالإسلام ، فتحلقوا حوله وكثر عددهم بمرور الأيام لاسيما بعد أن ادعى أن نسبه يصل إلى الإمام موسى الكاظم من نسل الحسين (رضى الله عنه) ، واستمر أبناؤه وحفدته من بعده فى توثيق علاقتهم بالقبائل والأتباع واضطر حاكم شيروان لطرد الجنيد – حفيد صفى الدين الأردبيلى من البطن الثالث – لما ينشره بين الناس من بدع فلجأ الجنيد إلى حسن الطويل حاكم دولة الشاة البيضاء وعاش هو وأبناؤه وحفدته فى كنف هذه الدولة بمدينة أردبيل ثم انتقلوا منها إلى جيلان حيث وجدوا أتباعهم كثرة ، وكان من بين هؤلاء الأبناء إسماعيل (أصبح الشاه إسماعيل ٩٠٧ – ٩٣٠ هـ) الذى بدأ يجمع أتباع جده مع العشائر التركمانية وشيعة إيران واستطاع أن يحصل على مبايعة معظم هذه العشائر فأطاح باثنى عشر أميرا كانوا يحكمون إيران[٥] وشرع يخضع إيران كلها لسيادته .

قامت دعوة إسماعيل لأتباع جده على أساس مذهبى ، إذ بدأ يدبر أموره على أساس أن القوة السياسية يجب أن تعتمد على قوة عسكرية مخلصة تربطها به

وشائج عقائدية متينة جعلها مستعدة للاستماتة فى الدفاع عن قائدها[٦] ولجأ إلى القوة والعنف لإيجاد هذه الرابطة فجعل الشيعية مذهب دولته الرسمى وأعمل القتل فى كل من يرفض اعتناق هذا المذهب ولم ينج من ذلك أحد؛ طفلا كان أو امرأة وراح ضحية هذا العنف أكثر من مليون نفس[٧] وفرض إسماعيل على جنوده لباسًا يجمع بين لباس الزرادشت ولباس الفرق المبتدعة فى اردبيل ، إذا تميز هذا اللباس بالقلنسوة الحمراء ذات الاثنى عشرة ذؤابة سوداء وكان الملاحدة الزرادشت فى عهد الساسانيين يتميزون بالملابس الحمراء ، كذلك كان المبتدعون فى أردبيل يرتدون القنلسوة الحمراء ذات الاثنى عشرة ذؤابة[٨] .

وهكذا أراد مؤسس الدولة الصفوية أن يحقق التجانس بين مختلف العناصر فى الهضبة الإيرانية فدعا إلى مذهب مخالف لإجماع المسلمين ، ومناقض لمن حوله من الدول الإسلامية وأفلح فى تعبئة جنوده روحيا فأخضع فى سنوات قلائل - ولاة التيموريين ، ثم تجاوزت جيوشه خراسان فاستولى على أذربيجان وديار بكر ثم العراق وفارس وعلى هذا النحو قامت الدولة الصفوية على أنقاض الدويلات والإمارات الإسلامية فى خراسان والعراقيين وتاخمت حدودها حدود الدولة العثمانية .

٢ - المصالح الاقتصادية الإيرانية فى الأناضول :

يعد الأناضول من قديم الزمان معبرًا تجاريًا هامًا بين أوروبا وآسيا ، فكانت القوافل تمر عبر الوديان التى تتخلل جباله العالية حتى تصل إلى شواطىء البحر المتوسط حيث تقوم أساطيل البنادقة والجنويين بتوزيع البضائع على مختلف أنحاء أوربا ، وكانت هناك ثلاث طرق رئيسة للقوافل :

١ - الطريق الأول ويصل ما بين أوروبا وأرض الجزيرة العربية وكان يمتد قطريا من اسكدار ثم يعبر خليج أزميت إلى أزنيق و(اسكى شهر)ثم قونيه فادنه ثم سوريا وأرض الجزيرة .

٢ - الطريق الثانى يصل ما بين أوروبا وإيران ويبدأ من اسكدار أيضا إلى آماسيا مارابازميت وبولى ثم إلى ارزنجان أو أرضروم ومن ثم إلى الشرق .

٣ - يمكن أن يتفرع الطريق الثانى من آماسيا إلى طوقات وسيواس وملطية وديار بكر ليصل إلى الموصل فبغداد[٩] .

فإذا عرفنا أن الحرير الإيرانى كان يُنقل من تبريز إلى أوروبا عبر الطريقين الثانى والثالث بل كان بعضه يغزل فى مغازل بورصه والباقى تتسلمه أوروبا فى شكله الخام، وأن الدولة الصفوية قامت دولة داخلية لا شواطىء لها تطل على أوروبا وأن الدولة العثمانية قد قامت فى الأناضول ، وكانت فى يدها مقاليد التجارة العابرة من أوروبا إلى الشرق وبالعكس إذا عرفنا كل ذلك أدركنا الأهمية الاقتصادية للأناضول بالنسبة للصفويين وخاصة المراكز التجارية منه ولذا كانت البلاد التى عددناها آنفا هى أهم ما استهدفته الهجمات الإيرانية عبر تاريخ الحروب الصفوية العثمانية .

ولاشك أن حرص الشاه إسماعيل على أن يكون له منفذ لأوروبا هو الذى جعله يعرض على الفرنجه الاتفاق ضد المماليك ، بحيث يهجمون عليهم من جهة البحر بينما يهاجمهم هو — أى إسماعيل — من جهة البر(١٠) . وكرر نفس المحاولة ضد العثمانيين ففى شوال من عام ٩٠٦ هـ بعث بسفير إلى البنادقة يعرض عليهم التحالف ضد بايزيد العثمانى ونظر لعبور هذا السفير الأراضى السورية توترت العلاقات بين العثمانيين والمماليك(١١) وإذا كانت هذه أهمية الأناضول بصفة عامة بالنسبة للصفويين فهناك أهمية خاصة لشرق الأناضول وجنوب شرقيه حيث توجد الأبواب الرئيسية لطرق القوافل : فى قونيه وآماسيا وطوقات وديار وأرضروم وطرابزون وهناك أهم مناجم للمعادن الرئيسية كالفضة (بين طرابزون وأرضروم) والنحاس (قرب ديار بكر) . وهناك عدد لا بأس به من القبائل التركمانية الشيعية والواعدة بالتشيع . وكان من أهداف حملة الشاة إسماعيل على إمارة ذى القادر فى جنوب شرقى الأناضول ، تفقد هذه القبائل وتبشيرها بالنصر القريب(١٢) .

٣ — العداء المذهبى وإثارة الفتن :

يقول المثل التركى القديم « إنما تقتحم القلعة من الداخل » وقد عرف الصفويون طريقهم إلى قلب الأناضول بنشر الدعاة يدعون للشيعة مذهبا وللشيخ حيدر — والد الشاه إسماعيل إماماً ، وكان كثير من أفراد العشائر التركمانية ، سواء من أتباع الطرق الصوفية المنحرفة أو الشيعة — يفدون إلى الشيخ حيدر فيلقنهم

مبادىء الإثني عشرية ويدربهم على القتال ثم يعيدهم إلى الأناضول بعد أن يطمئن لولائهم منعماً على كل منهم لقب (خليفة) ، زاد هذا النشاط فى عهد إسماعيل ، مما دعا السلطان بايزيد الثانى أن يحد من الرحلات الصوفية إلى أردبيل فكتب الشاه إسماعيل إليه يطلب السماح بعودة هذه الرحلات إلى ما كانت عليه وأجاب السلطان طلبه(١٣) .

ورث الصفويون عن فرق الباطنية فى إيران والعراق تراثا يزخر بشتى أنواع التخريب والاغتيال وتدبير الفتن ، وكانت فتنة « شاه قولى » — وهى من كبريات الفتن فى التاريخ العثمانى — من تدبيرهم ويجدر بنا أن نتتبع جذورها ونلم بتفاصيلها حتى نتعرف على دورهم فى إعاقة المسيرة الإسلامية للعثمانيين .

كان هناك من يدعى حسن خليفة ، تظاهر بالزهد واعتكف هو وابنه فى إحدى المغارات بجبل قريب من أنطاليا ، وطارت انباء زهده إلى السلطان بايزيد الثانى ، فبات يغدق عليه بالعطايا والهبات ورتب له راتباً سنويا ، ولم يكن هذا الشيخ سوى واحد من دعاة الشيعة فكان يلقن زائريه تعاليم المذهب الشيعى ، وبعد وفاته واصل الابن نور خليفة نشاط أبيه وأطلق على نفسه (شاه قولى) أى عبد الشاه ولكن بعد أن افتضح أمره بين الناس صاروا يلقبونه بـ (شيطان قولى) أى عبد الشيطان .

على أية حال ، حين اعتلى الشاه إسماعيل حكم إيران كان عدد مريدى هذا الشيخ من الكثرة بمكان فبدأ يدعو بالبيعة للشاه إسماعيل ووصل بدعوته إلى البلقان كما ثبت فى محضر التحقيق الذى نعرض جزءا منه فيما يلى لأهميته فى التعرف على أسلوب هؤلاء الدعاة : « افتضح أمر عميل من عملاء نور خليفة فى مدينة فيليبه (بالبلقان) فأجرى معه أمير السنجق التحقيق وجاء فيه :

— كم كنتم حين اتصلتم بشاه قولى ؟
— كنا أربعة أشخاص ، ذهبنا إليه فى شهر صفر الماضى فأعطى لكل منا عشرين ورقة دعوة لتوزيعها .
— أين ذهب الثلاثة الآخرون ؟
— ذهب صفر إلى سزر وإمام وعلى إلى سلانيك وتاج الدين إلى شوج(١٤) »

إلى هذا الحد بلغ نشاط الشيعة داخل الدولة العثمانية : توزيع ما عرفناه اليوم باسم (منشورات) والدعوة لمبايعة رئيس أجنبى والدعوة فى مكان أريقت فيه دماء الأتراك المسلمين فى سبيل فتحه ورفع لواء الإسلام فيه .

زاد نشاط الدعاة ومثيرى الفتن فى أواخر عهد السلطان بايزيد الذى كان قد بلغ من الكبر عتيا وترك شئون الحكم لوزرائه وأبنائه، وكان الأبناء فى شغل شاغل بتنافسهم على العرش المرتقب مما أدى إلى اختلال الأمن بالبلاد، فزاد عدد الخلايا السرطانية بين القبائل، وبات نور على خليفة يترقب ساعة الصفر لتنفيذ ما كان يرتب له . وذات يوم رأى أتباعه قافلة أمير أنطاليا وهى تتجه صوب الشمال فظنوا أن السلطان قد وافته المنية وأن الأمير ذاهب لقتال اخوته فانقض نور خليفة وأتباعه على تلك القافلة وسلبوها ثم سار فى عشرين ألف من المريدين والاتباع يدعو لنفسه باعتباره خليفة الشاه إسماعيل فى الأناضول »[١٥] سيقت فرقة صغيرة بقيادة (صوباشى) ظنا من الحكومة أن الأمر لا يعدو كونه جريمة فردية ، ورغم هزيمة هذه الفرقة لم يأبه أولو الأمر للفتنة فزادت جرأة نور على خليفة واستشرت فتنته : فبدأ يهاجم البلدة تلو الأخرى وكلما دخل بلدا وجد له اتباعا ، فزاد عدد قواته وبدأ يهزم القوات الحكومية المرسلة إليه، ووصل إلى مشارف بورصه وحاصرها حتى أرسل قاضيها مستغيثا : « إذا لم تصل إلينا تعزيزات خلال يومين قُضى الأمر »[١٦] ولكن قوات نور خليفة عدلت عن الحصار واتجهت إلى طوقات – إحدى محطات القوافل التجارية التى يستهدفها الصفويون – فاستولى عليها حيث قرأت الخطبة باسم الشاه إسماعيل[١٧] وعلى هذا المنوال ظلت قوات العصاة تستولى على مدينة اثر الأخرى وتقيم المذابح الجماعية إلى أن سُيّرت إليها حملة كبيرة بقيادة الصدر الأعظم على خادم باشا فالتقى بالعصاة قرب نهر جوبوك وفى هذه المعركة استشهد الصدر الأعظم ، ورغم ذلك استطاعت القوات الحكومية أن تفرق جمع أتباع نور خليفة بصعوبة ولكنها لم تقض على الفتنة نهائيا ، فقد فر رأسها إلى إيران[١٨] .

استنزفت هذه الفتنة دماء المسلمين وطاقاتهم وإمكاناتهم زهاء سنتين (٩١٥ – ٩١٧ هـ) ، مما حدا بالأمير سليم الذى كان والياً على طرابزون فى أقصى شرق الأناضول أن يحسم الأمر ويمسك مقاليد الأمور بيده ويطالب

والده السلطان بايزيد بالتنازل عن العرش ، فقد كان بحكم موقعه فى شرق الأناضول - يراقب عن كثب ما يخطط له الصفويون ورأى تغلغل الخطر الشيعى بين أخوته الأمراء أنفسهم مما بات يهدد كيان الدولة ذاتها ، وربما كان ذلك هو السبب المباشر الذى حدا بالسلطان سليم (٩١٨ - ٩٢٦ هـ) أن يبدأ نشاطه العسكرى بالشرق ، فكانت معركة جالديران (٩١٨ هـ) مع الصفويين أولى الحروب التى خاضها بعيداً عن دار الجهاد فى أوروبا ، ولم تكن الأخيرة فقد قضى سنى حكمه فى حروب على جبهة المشرق الإسلامى .

ولئن كان الخطر الشيعى هو السبب المباشر لاتجاه النشاط العسكرى للدولة العثمانية إلى المشرق الإسلامى ، فهناك أسباب تتصل من قريب أو بعيد بهذا الخطر منها :

١ - تسرب الأسطول البرتغالى إلى مياه الخليج العربى وعدم قدرة المماليك على إيقاف تقدمه ، بل وتهديده للحرمين الشريفين .
٢ - ظهور إمكانية قيام تحالف بين القوى الإسلامية المعادية للدولة العثمانية والقوى الصليبية فى الغرب .
٣ - تحرير السواحل الإسلامية فى شمالى أفريقيا من الاستعمار الأوروبى .

مهما يكن من أمر فقد وصل خطر الزحف الشيعى إلى شرق الأناضول إلى الحد الذى لا يمكن السكوت عنه ، لاسيما بعد أن وصلت إلى السلطان سليم تقارير تقول : « إن المبتدعين من الصوفية والشيعة قد استفحل خطرهم وزاد عددهم وباتوا يمعنون فى القرى سلبا ونهبا ولم يتورعوا عن قتل الرجال وسبى النساء وأتوا على الأخضر واليابس »(١٩) .

يتضح مما تقدم أن الدولة الصفوية قامت على أساس خلاف مذهبى ارتضته لنفسها ، وخلقت عداءً مذهبياً بين المسلمين لم يكن نابعاً من اخلاص لهذا المذهب بقدر ما كان نابعا من مصالح اقتصادية وأطماع سياسية ولم يكن العداء المذهبى سوى ستار تخفت وراءه هذه الأطماع .

هوامش الفصل الخامس

(١) Eliot, Charles, Turkey in Europe, London, 1965, P.54-55

(٢) أرسل بايزيد إلى مجاهدى البحر الاتراك الذين كانوا يعملون فى البحر المتوسط بأساطيل لهم صغيرة ومن هؤلاء الرئيس كال فألحقه بخدمة أسطول الدولة وسيحدث ذلك بالنسبة للمجاهد الشهير خير الدين برباروس فى عهد سليم الأول ،

لمزيد من التفاصيل ، انظر : Uzunçarsili a.g.e., C.II, S. 205

(٣) عبد العزيز نوار سبق ذكره .

(٤) فى مرعش والستان وما حولهما ، وملاطية وخربوط وما حولهما ، لمزيد من التفاصيل انظر :
أحمد السعيد سليمان ، تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ، القاهرة ١٩٧٢ ، جـ ٢ ، ص ٤٢٩ .

(٥) لمزيد من التفاصيل انظر :
على الشابى ، المرجع السابق ، ٢ ص ١٥٥ .
وأحمد السعيد سليمان ، المرجع السابق ، نفس الجزء ، ص ٥٤٤ / ٥٤٥ .

(٦) عبد العزيز نوار ، سبق ذكره ، ص ٢٢٠ .

(٧) Namik Kemal, Osmanli Tarihi, Nesr. Ulviye Ilgar, Istabul, 1976, C.III, s. 23

(٨) Islam Ansoklopedisi, Kizilbas,

(٩) نفس دائرة المعارف ، مادة الاناضول .

(١٠) ابن اياس ، بدائع الدهور ، جـ ٤ ، ص ١٩١ .

(١١) Uzunçarsili, Ismail Hakki, a.g.e., a.c., S. 195, d.3

(١٢) نفس المرجع ، نفس الجزء ، ص ٢٢٨ .

(١٣) فريدون ، منشآت السلاطين ، غير مذكور مكان وتاريخ الطبع ، جـ ١ ص ٣٣٨ - ٣٣٩ .

(١٤) وثيقة رقم ٦٦٣٦ (ارشيف طوب قابى) ، نشرت بالمرجع السابق ، جـ ٣ ، ص ٢٥٣ - ٢٥٤ .

(١٥) Namik Kemal, a.g.e, C.II, S. 280

(١٦) وثيقة رقم ٤٣٥١ طوب قابى ، عن Uzunçarsili, a.g.e., CIII, S. 255

(١٧) Uzunçarsili, Ismail Hakki, a.g.e., C.II, S. 229

(١٨) المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٥٥ .

(١٩) نفس المرجع ، جـ ٢ ، ص ٢٥٦ ، (وثيقة رقم ٦٥٢٢ بطوب قابى) .

الفصل السادس
بداية الحروب الصفوية العمثانية ونتائجها

كانت موقعة جالديران (٩٢٠ هـ) هى الشرارة الأولى لحروب طاحنة بين الصفويين والعثمانيين استمرت ما يربو على قرنين من الزمان أى طيلة حكم الأسرة الصفوية فى إيران ولم تنته بانتهاء الحكم الصفوى بل ظل أوارها مشتعلا زهاء قرن آخر من الزمان ، أى أن الحرب بين هاتين البلدين الإسلاميين استنفذت ثلاثة قرون من عمريهما .

ورغم ما كان يتخلل هذه الحروب من اتفاقيات ومعاهدات سلام ، لم يسد بينهما سلام حقيقى ، وظل الطرفان طيلة القرون الثلاثة يتربص كل منهما بالآخر متوجساً منه خيفة حتى أصبحت العلاقة بينهما علاقة (عداء تقليدى) .

ولا يعنينا هنا وصف هذه الحروب وتتبع أسبابها ونتائجها ، وما إلى ذلك من وقائع تاريخية طالما تناولها المؤرخون[١] . وإنما يعنينا بالدرجة الأولى ، تبيان أثر كل جولة من هذه الحروب فى تعطيل مسيرة الفتوح الإسلامية فى أوروبا وكيف كانت كل منها سبباً فى انحسار المد الإسلامى عن أوروبا .

موقعة جالديران :

ما إن تولى السلطان سليم الأول الحكم حتى بدأ تعبئة قواته للحرب ضد الشاه إسماعيل الصفوى وكان للتعبئة المعنوية أهمية كبرى ، إذ أن إعلان مثل هذه الحرب لم يكن أمراً مقبولا لدى الأتراك العثمانيين فكان معارضوها كثرة[٢] .

انبرى علماء الدولة العثمانية للدفاع عن السنة وتوضيح منهاجها وكشف

أباطيل غلاة الشيعة ومروقهم عن الإسلام فكتب ابن كمال باشا (٨٧٣ - ٩٤١ هـ) رسالة صغيرة أورد فيها رأيه - مدعما بأدلة من الكتاب والسنة ، وقرر أن التشيع مخالفة صريحة لجماعة المسلمين وأن قتال الشيعة إنما هو جهاد وحربهم غزوة[٣] .

واجتمع السلطان سليم بقادة جيشه ورجال دولته وخطب فيهم قائلا : « إن العالم المسيحى ما انفك يتربص بنا ، وإن كان الآن مختبئا فهو يراقبنا من ثقب الباب متحينا الفرصة للانقضاض علينا ولا ندرى أى خطر يحيق بنا لو انقسم الناس إلى مذاهب فى هذه الفترة الحرجة .. من المؤسف أن تجمع القبائل التركية أموالها ومتاعها وتذهب بها حاجةً إلى هذا الملعون وكأنهم ذاهبون إلى مكة أو المدينة ، لقد أراق هذا الملعون دم أهل السنة واستحل أموالهم وسبا نساءهم ومع ذلك تعتبر هذه القبائل مكانه كعبةً بل وصل الأمر بهم لدرجة السجود كلّما ذكر اسمه[٤] .

ولم يكن السلطان سليم مبالغا فيما قال ، فإلى هذا الحد كانت الدولة الصفوية شوكة فى ظهر العثمانيين وإلى هذا الحد أيضا بلغ تأليه شيعة الأناضول لإمامهم الشاه إسماعيل ولذا كان من الضرورى أن يقوم السلطان بحملة تطهير واسعة قبل أن يمضى إلى القتال حتى لا يطعن من الظهر . واستصدر فتوى بوجوب قتال الشاه إسماعيل ، كدأب العثمانيين قبل الخروج إلى أى حرب ، وجمع جيشاً جواراً اتجه به إلى الشرق قاصدا إيران ، وفى الطريق تبادل الطرفان رسائل مفعمة بالحقد والكراهية والسخرية ، ومن الطريف أن الجيش العثمانى قطع صحارى أرزنجان وتوغل فى الأراضى الإيرانية ومازال الشاه إسماعيل يكتب للسلطان سليم « يدعوه للخروج إلى ميدان الرجال »[٥] ويتهمه بالجبن تارة ويذكره بما كان بين آبائهما من صداقة تارة أخرى وما كان بين كليهما من مودة أثناء إمارة سليم على طرابزون .

مهما يكن من أمر هذه الرسائل وما حملته من ألفاظ يندى لها الجبين فقد كانت خطة الشاه إسماعيل - وهى خطة الفرس طوال الحروب الإيرانية العثمانية - أن يأتى على الأخضر واليابس أمام الجيش العثمانى ويستثيره ويحفزه على التوغل داخل الأراضى الإيرانية بينما يختفى هو بجيشه عن الأنظار ، ولا يبرز من مكمنه

إلّا وقد نال الجوع والإرهاق والسآمة من الجيش العثمانى . وهذا ما حدث فعلا ولولا قلة من المؤن كانت تأتى إلى الجيش العثمانى من ميناء طرابزون عبر الوديان والفيافى وعلى ظهر البغال والحمير لكان مآل الجيش العثمانى إلى هلاك . وإذا كانت خطة (الأرض المحروقة) هذه لم تنجح كثيرا فى قطع خطوط الإمداد والتموين عن الجيش العثمانى فقد نجحت فى إصابة جنوده بالقلق والتوتر ، وبث روح التذمر بينهم ضد قائدهم ؛ فقد استيقظ السلطان من نومه على صياح جنوده وهم يهدمون الخيام ويرشقون خيمته بالرصاص والسهام رافعين راية العصيان مطالبين بالعودة بعد أن يئسوا من لقاء العدو . وبحنكة القائد استطاع السلطان أن يمسك بزمام الموقف ويخطب فى جنوده مذكرا إياهم بأنهم إنما جاءوا « لقتال المرتدين عن الدين حتى يفيئوا إلى أمر الله فمن تخاذل وآثر العودة فهو فى حكم المرتد أيضا »[٦] ومضى السلطان سليم بجنوده قاصدًا تبريز ، وأخيراً ظهر الشاه إسماعيل والتقى الجمعان فى وادى يسمى جالديران فى شمال شرق آذربيجان فى ٢ رجب ٩٢٠ هـ/ ١٥١٤ م . وهزم الجيش الصفوى هزيمة قاسية ولكن لم تكن قاضية إذ ولى الأدبار واختفى ثانية عن الأنظار .

دخل الجيش العثمانى مدينة تبريز فسر بذلك أهلوها واستقبلوه استقبال الفاتحين إذ كانت غالبيتهم من السنة الأحناف الذين تظاهروا بالتشيع خوفا من إرهاب الشاه إسماعيل فبدأوا يقيمون صلاة الجمعة فى المساجد لأول مرة منذ تولى الشاه حكم إيران ، ومنع المسلمين من آدائها فى المساجد كما سمعوا الدعاء للرسول عليه صلاة الله وسلامه ولخلفائه الراشدين لأول مرة أيضا بعد طول غياب[٧] .

نتائج موقعة جالديــران :

ربما لم يحقق الجيش العثمانى أهدافًا مباشرة بعد انتصاره فى جالديران ، إذ لم يضع هذا الانتصار نهاية حاسمة للحرب مع الصفويين ، لم يوقفهم عند حدهم ، ولم يضع حدا لنشاطهم العدائى ضد الدولة العثمانية ، ولكن السلطان سليم استولى فى عودته على شمال العراق وبعث والى بغداد ذو الفقار يعلن ولاءه للعثمانيين .

وهاجم سليم الأول إمارة ذى القادر وقضى على علاء الدولة حاكمها ونصّب واليا من قبله ،ثم عاد إلى استانبول ليعد العدة لقتال المماليك الذين اشم

رائحة الخيانة فى سلوكهم أثناء حربه مع الشاه فرغم إعلان المماليك حيادهم حين دعاهم سليم للاتفاق معه ضد الشاه إسماعيل ، بعثوا بجنودهم ليقطعوا خطوط الإمداد المتجهة إلى الجيش العثمانى عبر الأراضى المملوكية فى شمالى حلب .

والحقيقة لم تكن موقعة جالديران إلّا حافزا على سرعة قيام السلطان سليم بفتح مصر والشام فقد كانت نفسه تتوق إلى ذلك للأسباب التالية :

١ - تأكيد زعامة الدولة العثمانية للعالم الإسلامى ولاسيما عند دخول الأراضى المقدسة فى حوزتها .
٢ - حماية ظهر الجيس العثمانى من ناحية الغرب إذا ما اضطر لحرب الصفويين ، كذا تأمين خطوط الامداد والتموين عبر سواحل البحر الأبيض المتوسط .
٣ - الإيقاع بالبرتغاليين فى مياه البحر الأحمر لاسيما بعد أن استفحل خطرهم نتيجة عدم وجود جبهة إسلامية متماسكة ، بل سنرى أنهم تسربوا إلى الخليج العربى بدعوة من الصفويين لضرب الدولة العثمانية من الجنوب .

الأهداف الإسلامية التى حققها العثمانيون بعد جالديران :

عرفنا أن موقعة (جالديران) كانت من الأسباب التى حدت بالعثمانيين إلى قتال المماليك وكان انتصارهم فى موقعة مرج دابق (٩٢٢ هـ) ثم الريدانية (٩٢٣ هـ) سببا فى حكم العثمانيين مصر والشام ومن ثم الحجاز واليمن وأصبح السلطان سليم الأول خليفة المسلمين وخادم الحرمين الشريفين ، وتحمل مسئولية الدفاع عن المقدسات الإسلامية التى بات يهددها البرتغاليون ، فبنى بعض السفن فى ترسانة السويس واستطاع إيقاف خطر البرتغاليين فى البحر الأحمر ثم جاءت حملة خادم سنان باشا فى عهد سلفه السلطان سليمان القانونى لتتولى تطهير البحر الأحمر تماما من السفن الأجنبية .

التحق بخدمة السلطان سليم أثناء وجوده فى مصر أسرة من مجاهدى البحر الأتراك وهى أسرة أوروج بك والذى تم على يده ويد أخيه خير الدين برباروس (٨٨٨ - ٩٥٣ هـ) تطهير سواحل شمال أفريقيا من المستعمرات الإسبانية والإيطالية،وبذا حافظ شمال أفريقيا على إسلاميته وعروبته .

حققت الدولة العثمانية أهدافًا اقتصادية واستراتيجية على جانب كبير من الأهمية فقد زادت مواردها الاقتصادية ، واستفادت من الخبرات الفنية الموجودة فى مصر والشام والحجاز وحصلت على قواعد عسكرية جديدة وخاصة المطلة على سواحل البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر حتى أضحى البحر المتوسط بحيرة عثمانية .

لاشك أن وصول الدولة العثمانية إلى هذه الأهداف لم يكن ليرضى الجانب الصفوى ، بل كان مبعثا لحقده خاصة بعد سيادة العثمانيين على الطرق المؤدية للأراضى المقدسة من ناحية وعلى طرق التجارة إلى البلاد الأوروبية من ناحية أخرى ، وربما كان إحكام العثمانيين سيطرتهم على طرق التجارة ومنافذها ، فى البحرين الأحمر والأبيض المتوسط من أشد الضربات التى تلقاها الصفويون ، ومما زاد الأمر سوءا أن السلطان سليم بدأ يطبق حصارا اقتصاديا على التجارة الإيرانية فأصدر مرسوما يمنع الاتجار فى البضائع الفارسية أو السماح بمرورها عبر البلاد وكان يصادر أى بضاعة يتم ضبطها كما يعاقب التاجر المخالف لهذا المرسوم(٨) .

وهكذا بات حقد الصفويين على العثمانيين من الشدة بحيث يمنع الجانبين من الوصول إلى أية تسوية سلمية . بل إن الشاه إسماعيل لم يتوقف عن البحث عن حلفاء له ضد الدولة العثمانية التى أصبحت القوة الكبرى التى تحول بينه وبين الوصول إلى البحر المتوسط . وكان مستعدا لأن يتحالف حتى مع البرتغاليين أشد القوى خطرا على العالم الإسلامى حينذاك ومع أن ملك هرموز – الجزيرة الصغيرة التى أضيرت اقتصادياتها بشدة لمجىء البرتغاليين – وضع نفسه تحت سيادة الشاه لعل الأخير ينقذه من سطوة البرتغاليين المريعة إلّا أن الشاه وضع مصالحه الخاصة وحقده الشديد على الأتراك العثمانيين فى مقدمة أية تسوية .. فلا غرو أن وافق على أن تظل هرموز تحت سيطرة البرتغالية فى مقابل حصوله على الأحساء ولكن حتى هذه الفرصة لم يتحها البرتغاليون لحليفهم الشاه وكانت النتيجة أن ساعدت سيادة الشاه هذه على تقوية التسلط البرتغالى على الخليج العربى »(٩) .

وهكذا كانت سياسة الشاه إسماعيل وظلت سياسة من ولى بعده من الشاهات .

هوامش الفصل السادس

(١) انظر على سبيل المثال : برناردين كلتي ، فتح القسطنطينية ، تعريب شكري محمود نديم ، بغداد ، ١٩٦٢ .

(٢) Uzunçarsili, C.III, S. 259

(٣) Banarli, Nihad Sami, Resimli Türk Edebiyati Tarihi, Istanbul, 1971. S.605

(٤) Namik Kemal, a.g.e., C.III, s. 27

(٥) فريدون ، سبق ذكره ، جـ ١ ص ٣٥٧ .

(٦) Uzunçarsili, Ismail Hakki, a.g.e., a.c., S. 265

(٧) Namik Kemal, a.g.e., a.c., s. 49

(٨) المرجع السابق ، نفس الجزء ، ص ١٢٧ .

(٩) عبد العزيز نوار ، سبق ذكره ، ص ٢٢٦ .

الفصل السابع

الحرب الصفوية العثمانية الثانية وأثرها فى توقف الفتوح الإسلامية عند فيينـــا

عُرف عهد السلطان سليمان القانونى (٩٢٦ - ٩٤٧ هـ) بالعصر الذهبى للدولة العثمانية، ففيه بلغت الدولة أقصى اتساعها وأوج مجدها ، وإذا كان الأتراك قد لقبوا السلطان سليمان بـ (القانونى) لكثرة ما صدر فى عهده من قوانين فإن الأوربيين لقبوه بـ (المعظم) .

لأنه استطاع بالإضافة إلى علمه وعرفانه وتشجيعه الفنون وكثرة ما بلغ من توفيق - استطاع أن يحتفظ بهيبته فى عصر كان يعيش فيه من المشاهير : شارل الأول وفرانسوا الأول وليون العاشروكريستوف كولمب وكورنس[1] ... الخ . ولن نكون مبالغين إذا ما وصفنا عصره بعصر الفتوح ، إذ بدأت فى عهده الوثبة الإسلامية الثالثة ، ووصلت الجيوش الإسلامية إلى قلب أوروبا بصورة تعيد للأذهان الفتوح الإسلامية الأولى ومن الجدير بالذكر أن الطريق إلى أوروبا كان أكثر وعورة عما سبق ، إذ ظهرت عوامل جديدة زادت من حدة الصراع مع القوى الصليبية وزادت من قوة تحديها للدولة العثمانية وأهم هذه العوامل :

١ - فتح ميادين جديدة للصراع مع المسلمين بالتفاف البرتغاليين حول الجزيرة العربية ، وتواجدهم فى المياه الإسلامية.

٢ - دخول قوى سياسية فتية ساحة الصراع مثل أسرة هابسبورج فى المجر

والنمسا وكانت تحلم بامبراطورية كبرى فى شمال الدانوب كذا شارلكان حاكم أسبانيا وهولندا وكان يحلم بالسيادة على البحر المتوسط .

٣ – الصراع بين فرانسوا الأول ملك فرنسا وشارلكان حول تركة الإمبراطورية الرومانية فى إيطاليا .

فرضت هذه العوامل على الدولة العثمانية أن تنازل القوى الصليبية فى ميادين ثلاثة :

١ – الخليج العربى والمحيط الهندى والبحر الأحمر .

٢ – شرق ووسط أوروبا .

٣ – البحر المتوسط وجنوب غربى أوروبا .

كانت هذه الميادين تشمل نصف الكرة الأرضية تقريبا من حيث المساحة، وكانت تضم أعتى القوى وأشدها ضراوة ، لذا لم يكن من اليسير على السلطان سليمان القانونى أن يتغلب على هذه القوى التى ما فتئت تنازله حينا منفردة وأحيانا مجتمعة وأن يواجه الصعوبات الداخلية التى قوبل بها عشية توليه السلطنة ومن أهمها الحركات الانفصالية التى قادها جان بردى الغزالى فى الشام وأحمد باشا فى مصر .

ومهما يكن من أمر استطاع سليمان القانونى أن يواصل مسيرة الفتح فى أوروبا وكانت أهم خطواته :

١ – فتح بلغراد (٩٢٧ هـ) :

وكانت هذه المدينة الحصينة بمثابة درع يحتمى وراءه المجريون كلما ناوأوا العثمانيين ومن ثم فإن فتحها كان يعنى حرمان المجر من هذا الدرع ، كما أن توسطها للقارة الأوروبية جعل منها قاعدة صالحة لانطلاقات عثمانية أخرى إلى قلب أوروبا وقد استغرق حصارها شهرًا كاملًا وكان أهم ما يميزه انضمام طلبة المعاهد الدينية الموجودة فى البلقان إلى صفوف المقاتلين[٢] طلبا للجهاد مما يدل على أن الدولة العثمانية بدأت تجنى ثمرة جهودها فى سبيل نشر الإسلام فى أوروبا .

٢ – فتح جزيرة رودس :

اتخذها عصبة من الفرسان عرفوا باسم فرسان القديس يوحنا ، قاعدة

لأعمال القرصنة البحرية وكانوا شوكة فى جنب الدولة العثمانية مما جعل فتح هذه الجزيرة أمرا حيويا بالنسبة للدولة من ناحية ولنشاط التجارة الإسلامية من ناحية أخرى ، ورغم بسالة الفرسان فى الدفاع عن الجزيرة وقوة تحصينها استطاع العثمانيون فتحها وإجلاء الفرسان عنها في عام ٩٢٩ هـ .

٣ - اجتياح المجر وحصار فيينا :

ظلت المجر عدوا تقليديا للعثمانيين منذ أن وطئت أقدامهم شبه جزيرة البلقان فهى إما خصم مباشر أو حليفة لخصم ، ثم كان ما كان من فتح بلغراد فاهتزت أرجاء المجر ورأى ملكها أنه هالك لا محالة ، فعقد تحالفا صليبيا ضم كل جيوش أوروبا وبادر العثمانيون بلقائه فى موقعة موهاج (٩٣٢ هـ) واستطاع الجيش العثمانى بفضل إيمان أفراده وحنكة قادته أن يحرز نصرا ساحقا على هذا التحالف الذى كان يضم أكثر الدول الأوروبية قوة آنذاك ، وزحف إلى عاصمة المجر (بود) فاستولى عليها وحوّل أكبر كنائسها مساجد وأصبح من حق العثمانيين تولية حاكم المجر ولكن دخول العثمانيين المجر أدى إلى الاحتكاك المباشر مع النمسا ، وكان ملكها فرديناند من آل هابسبورك ومن أبناء عمومة ملك المجر الذى قتل فى المعركة لذا كان يرى أنه أحق بعرشها من أى حاكم آخر يوليه العثمانيون فانتهز فرصة عودة السلطان إلى إستانبول وهاجم عاصمة المجر وطرد الحامية العثمانية منها، مما جعل السلطان سليمان يكر راجعا فى عام ٩٣٦ هـ ،ويسترد ما أخذه فرديناند الذى فر هاربا إلى النمسا فتعقبه وحاصر عاصمته وأحكم الحصار وظل يقصف أسوارها طيلة ستة شهور وأصبح قاب قوسين أو أدنى من فتحها وبذا يكون قد قضى على القوة المناوئة الوحيدة فى وسط أوروبا،ولكن طارت إليه أنباء من الشرق جعلته يكر راجعا إلى إستانبول ، لقد كانت نذر الخطر الصفوى بشقيه :
(أ) فتن الباطنية والعلوية (ب) الحروب طويلة الأمـد .

ظهـور فتن الباطنية والشيعة فى الأناضول :

أطلت فتن الباطنية برأسها ، والجيوش العثمانية بعد فى خنادقها فى وادى موهاج بالمجر ، وبالتحديد فى شهر ذى القعدة من عام ٩٣٣ هـ فى مكان يسمى بوزوق من أعمال ادنه وقد بدأت بواقعة من الوقائع المعتادة التى يمكن أن تحدث كل يوم ؛ إذ تقدم شخصان بشكوى إلى قاضى السنجق من كاتب التحريرات (تحرير

الأراضى) فلم يحسن القاضى استقبالهما بل أساء إلى أحدهما وكان من الممكن ألا تتطور الأمور أكثر من أن يرفع المظلوم شكواه إلى الولاية ، ولكن سرعان ما اكفهر الأفق وخرج رجل شيعى يعرف بذى النون ، فرفع يده وإذا بحشود ضخمة تتحلق حوله ، ولم يمض وقت طويل حتى خرجت جماعات العلويين من كل مكان لتعلن تمردها على الوالى ومن الواضح أن هذه العناصر كانت مبيتة النية على إثارة الفتنة للأسباب التالية :

١ - أن الشاكيين كانا - كما يبدو من اسميهما - شيعة ، فأحدهما يدعى خوجه بابا والآخر شاه ولى ...

٢ - تزامن هذه الفتنة مع فتن أخرى فى أماكن متفرقة شملت مروحة غطت جنوب شرق الأناضول تقريبا ، مثل فتنة ولى خليفة ودموز اوغلان فى (أدنة) وكلاهما من زعماء الشيعة وتمرد ينيجه بك فى طرسوس(٣) .

وكانت هذه الفتن من القوة بحيث لم تستطع القوات الحكومية إخمادها إلّا بشق الأنفس .

أما أشد الفتن خطرا وتهديدا لأمن الدولة فقد كانت تلك التى أشعلها الشيخ البكتاشى العلوى اسكندر قلندر جلبى ، والتف حوله ما يربو على ثلاثين ألف علوى(٤) أعملوا السلب والنهب فى أرجاء الأناضول ورغم كثرة الحملات التى جردها الولاة إليه لم تخمد فتنته فاستغاث الولاة بالعاصمة « الأناضول كله فى حالق ما لم ترسل النجدة على جناح السرعة » فخرج الصدر الأعظم على رأس حملة كبيرة ولم يستطع التغلب على قوات قلندر جلبى إلا بالحيلة(٥) وتم إخماد فتنته فى ٩٣٥ هـ. ولم ينقطع حبل الفتن فقد قام شيعى آخر فى أدنه عام ٩٣٧ هـ وانتهز فرصة ضعف الأمن فى الولاية نتيجة لمرض الوالى وارتدى قلنسوة الشيعة فالتف حوله الآلاف وزحفوا إلى مبنى الولاية وقتلوا الوالى(٦) .

وكأى من الفتن كان لهذه الفتن عوامل داخلية ساعدت على إزكاء نارها مثل :

١ - انشغال الدولة بالحروب وتعبئة كل قوتها لها .

٢ - سوء تصرف بعض موظفى الدولة .

٣ - مصادرة اقطاعيات الفرسان (السباهية) لسبب أو آخر فأصبح هؤلاء

الفرسان – الساخطون – القوة الرئيسية فى صفوف المتمردين .

بيد أن التوقيت واتفاق كل هذه الزعامات العلوية فى وقت واحد يلقى بظلال صفوية على هذه الأحداث، لاسيما أن الحرب قامت بين الدولتين فى أعقاب هذه الفتن مباشرة .

(ب) الحروب العثمانية الصفوية الثانية :

جرت العادة على أن يهنىء حكام المسلمين بعضهم بعضا عند تولى الحكم ، ولكن الشاه إسماعيل لم يهنىء سليمان بتوليه الحكم وكان ذلك إعلانا من الشاه عن عدم الصفاء بين الدولتين، ثم تطور هذا الشعور إلى توتر بعد إرسال الشاه لوفد يتكون من خمسمائة شخص للتهنئة بفتح ردوس عام ٩٢٩ هـ ولم يسمح السلطان إلّا بدخول عشرين منهم إلى العاصمة واُحْتُجَز الباقون فى اسكدار .

تولى الشاه طهماسب الحكم بعد وفاة أبيه إسماعيل عام ٩٣٠ هـ ولم يغير من سياسته تجاه الدولة العثمانية ومن ثم لم تتحسن العلاقات بل زادت سوءًا بلجوء علامه خان أحد أمراء إيران إلى الدولة العثمانية ولجوء شرف خان الوالى العثمانى على تبليس إلى إيران فما كان من العثمانيين إلّا أن عينوا الأمير الإيرانى واليا على بتليس بعد هروب واليها العثمانى(٧) .

ولقد ظلت قصة الهروب من طرف واللجوء إلى الطرف الآخر من الأسباب التقليدية لتردى الأوضاع بين البلدين طوال تاريخ الصراع بينهما .

على أية حال كان استيلاء الصفويين على بغداد واستغاثة حاكمها بالسلطان سليمان سببا مباشرا لزحف الجيش العثمانى قاصدا إيران، خاصة وأن السلطان سليمان القانونى كان يسعى وراء هدفين أساسيين :

١ – تأمين ظهر الدولة العثمانية أثناء حروبها فى أوروبا بعد الاتفاق الصفوى البرتغالى ونفوذ الأسطول البرتغالى فى الخليج العربى . وتهديده للأماكن المقدسة فى الحجاز .

٢ – إعادة صناعة الحرير إلى سابق مجدها بعد أن أصابها البوار نتيجة الحصار الذى فرضه سلفه عليها .

وكالعادة تطايرت الرسائل بين الجانبين مهددة متوعدة واستفتى السلطان سليمان فى قتال طهماسب باعتباره مرتدا[8]، وسار الجيش العثمانى بقيادة الصدر الأعظم قاصدا تبريز ولم يلتق بالشاه ولا بجيشه كالعادة أيضا – فتوجه إلى بغداد حيث دعا السلطان سليمان لدخولها ولضمان تحقيق الهدف الأقتصادى من الحملة توجه سليمان مرة أخرى إلى تبريز، ومثل أمامه مظفر خان محتكر أنتاج الحرير فى منطقة جيلان طالبا حماية العثمانيين لتجارة الحرير، ولاشك أن هذا الطلب يدل دلالة واضحة على عدم قدرة الجانب الإيرانى على حماية هذه التجارة[9].

اضطر السلطان للعودة إلى استانبول لأنباء مفادها أن فرديناند ملك النمسا يستعد للهجوم من جديد على العثمانيين فانتهز طهماسب هذه الفرصة وظهر بجيشه فاستعاد تبريز ومدينة فان مما أدى إلى عودة الجيش العثمانى مرة أخرى واستمرت الحرب على هذا المنوال طيلة واحد وعشرين عاما أى من ٩٤١ هـ – إلى ٩٦٢، التزم خلالها الجانب الإيرانى بأسلوب الكر والفر، فكان يستعيد بعض ما يحتله العثمانيون إلا أن العثمانيين رموا بكل ثقلهم فى العراق العربى ولذا استقر الأمر لهم هناك وكان ذلك مغنمًا استراتيجيًا كبيرًا لهم ولطمة كبرى للعدوين المتفاهمين: الصفويين والبرتغاليين.

١ – من حيث الاستراتيجية أصبح للعثمانيين قاعدة بحرية متقدمة فى البصرة مكنتهم من توجيه ضربات موجعة للأسطول البرتغالى بحيث قاوموا نفوذه فى منطقة الخليج طيلة خمسين عاما، وبفضل هذه القاعدة جاء الأسطول العثمانى بعد تطهير سواحل اليمن من الوجود البرتغالى من اليمن إلى بغداد فى ٩٤٥ هـ، واستطاع بيرى رئيس أن يصل بأسطوله إلى سواحل الهند فى ٩٥٩ هـ ولم ينفك أسطول رئيس على عن قطع المسافة بين البصرة والسويس جيئة وذهابا حتى تلاشى نفوذ الأساطيل الأجنبية فى المياه الإسلامية، كل ذلك كان له أثره فى تشجيع إمارات الخليج على الوقوف أمام النفوذ الأجنبى[10].

٢ – من حيث الإضرار بمصالح الصفويين فمن الوضح أن الوجود العثمانى فى الخليج العربى قد فوّت عليهم الفرصة للتحالف مع القوى الصليبية هناك رغم سعيهم الدؤوب لهذا التحالف.

٣ - أصيبت آمال الصفويين فى الزعامة الإسلامية - فى مقتل باستيلاء العثمانيين على العراق العربى حيث توجد عتباتهم المقدسة .

بدأت بوادر الصلح بين الطرفين بعد قيام الجيش العثمانى بثلاث حملات متوالية على إيران ونستدل من الرسائل المتبادلة بين الجانبين فى هذه الفترة أن الجانب الايرانى كان يطمح فى الحصول على المراكز الاستراتيجية فى شرق الأناضول مثل قارص وديار بكر وأرضروم ولكن الجانب العثمانى كان على دراية بنواياه ، ومن ثم لم يدع له فرصة لتحقيق مآربه(١١) وندرك أيضا من هذه الرسائل كم كان يهم الجانب العثمانى ألا يُسب الخلفاء الراشدون الثلاثة فى إيران وأن مديح سيدنا على (كرم الله وجهه) لا يعنى ذم الآخرين(١٢) .

أولى المعاهدات العثمانية الصفوية :

كان لكل من الطرفين دوافعه لإتمام الصلح فالسلطان سليمان قد حقق أهدافه كما رأينا ويريد حسم الموقف على هذه الجبهة وليتفرغ - كما جاء فى رسالته - لتحقيق رخاء المسلمين وحماية أوقاف الحرمين الشريفين وحفظ أماناتهما(١٣) .

أما الشاه طهماسب فقد بات لزاما عليه أن يتفرغ لحل مشكلات بلاده الداخلية ويؤمن سلامة اراضيه من الأوزبك(١٤) .

وهكذا تم توقيع أولى المعاهدات بين الطرفين فى بلدة آماسيا فى ٨ رجب ٩٦٢ هـ وبموجب هذه المعاهدة :

استقر الأمر للعثمانيين فى آذربيجان وعاصمتها تبريز وفى شرق الأناضول ومراكزه الحصينة وفى العراق العربى وتعهد العثمانيون بتحقيق أمن وسلامة الحجاج الإيرانيين أثناء أدائهم فريضة الحج فى الحجاز ، وأثناء زيارتهم . لما يُسمى عندهم بالعتبات المقدسة(١٥) .

ساد الهدوء على الجبهة الإيرانية العثمانية طيلة خمسة وعشرين عاما وقع خلالها بعض الأحداث التى كادت أن تعصف بهذا السلام ومنها هرب الأمير بايزيد بن سليمان القانونى إلى إيران وإكرام وفادته فى البلاط الإيرانى طمعًا فى مساومة أبيه ويمكن أن نستشف من ردود السلطان سليمان على الشاه طهماسب

أن الأخير كانت له بعض المطالب بشأن العتبات المقدسة وتسهيل وصول النذور والصدقات إليها ، وكذا إلى المدينة المنورة »[١٦] .

وفى الواقع أنه بقدر ما كان السلام هشا ، فإن مواضع النزاع كانت من الكثرة بحيث يمكن لأى من الطرفين أن يتذرع بها وكان أهمها :

١ – النزاع بين عشائر الحدود وأمرائها وخاصة فى منطقة الكردستان التى كانت تحكمها العشائر المحلية وتتمتع بشبه استقلال عن الدولة ، وكثيرا ما تنازع أمراء هذه العشائر ولجأوا إلى الجانب الإيرانى كذلك قبائل البدو حول البصرة[١٧] .

٢ – هجوم عشائر البدو على القوافل سواء التجارية منها أو قوافل الحج وكان الهجوم على أحد القوافل العثمانية المحملة بالحرير من جيلان هى الشرارة التى أشعلت نيران الحرب الثالثة بين الدولتين عام ٩٨٥ هـ[١٨] .

٣ – هجرة القبائل المتمردة ففى إحدى الرسائل المتبادلة بين سليمان القانونى وطهماسب يعد السلطان سليمان بالنظر فى أمر القافلة التى هوجمت فى طريقها إلى العراق وأمر عودة القبيلة المهاجرة من بلدة طوسج[١٩] .

وهكذا بدلا من أن يضع الصفويون يدهم فى يد العثمانيين لحماية الحرمين الشريفين من التهديد البرتغالى ولتطهير البحار الإسلامية منهم ، وضعوا أنفسهم فى خدمة الأسطول البرتغالى ، لطعن الدولة العثمانية من الخلف ورغم انتصار العثمانيين عليهم فإن الحروب معهم كانت استنزافا لجهود العثمانيين على الساحة الأوروبية وعرقلة الفتوح الإسلامية كما رأينا .

ومع ذلك تغلب العثمانيون على هذه المعوقات فى عهد سليمان القانونى فطهروا البحار من أعداء الإسلام وتعقبوهم حتى سواحل إسبانيا وروع قباطنة الترك مثل خير الدين برباروس وبياله وطورغود سواحل البحر الأبيض المتوسط، وطردوا الأسبان من طرابلس الغرب ، واتسعت بلاد العثمانيين حتى شملت الأراضى الواقعة من بودابست على نهر الدانوب إلى أسوان بالقرب من شلالات النيل ومن نهر الفرات إلى قرب مضيق جبل طارق .

* * * *

هوامش الفصل السابع

(١) أحمد السعيد سليمان ، سبق ذكره ، جـ٢ ، ص ٤٤٤ .

(٢) Uzunçarsili, Ismail Hakki, a.g.e., a.c., S. 312

(٣) باختصار عن المرجع السابق ، نفس الجزء ، ص ٣٤٦ .

(٤) نامق كمال ، المرجع السابق ، جـ٣ ، ص ١٨٢ .

(٥) باختصار عن : Uzunçarsili, a.g.e., a.c., S. 347

(٦) نامق كمال ، المرجع السابق ، نفس الجزء ، ص ١٨٣ .

(٧) من الطريف أن هذا الامير الايرانى هو فى الأصل من مواطنى الدولة العثمانية بل خدم فى الجيش العثمانى وكان فارسا من أصحاب الاقطاعيات ولكنه كان علويا فهرب إلى ايران اثناء تنكيل السلطان سليم الأول بالعلويين فى الاناضول فأحسن الشاه إسماعيل استقباله وعينه أميرا على أذربيجان ، ولم تطل امارته كثيرا إذ دب الخلاف بينهما فهرب خوفا من تنكيل إسماعيل به ولجأ إلى السلطان سليم الذى أعاده إلى الجيش العثمانى واشترك فى حروب البلقان . فإذا عدنا إلى الوالى العثمانى على تبليس شرف خان وجدناه كردى الأصل كان تابعا للصفويين ثم هرب منهم إلى السلطان سليم الذى عينه واليا على تبليس ثم كان عودته إلى إيران فى ٩٣٩ هـ .

(٨) فريدون ، سبق ذكره ، جـ٩ ، ص ٥٢٩ / ٥٣٠ .

(٩) Olson, R.,

(١٠) لمزيد من التفاصيل ، انظر :

عبد العزيز نوار ، سبق ذكره ، ص ١٤٢ .

جمال زكريا قاسم ، النزاع البريطانى العثمانى فى الخليج العربى ، مجلة دارسات ما قبل العهد العثمانى ، تونس ، ١٩٨٢ ، ص ٣٥٦ .

نوال حمزة الصيرفى . النقود البرتغالى فى الخليج العربى ، الرياض ١٤٠٣هـ ، ص ١٤٥ .

(١١) فريدون ، المرجع السابق ، ص ٥١٢ .

(١٢) المرجع السابق ، ٥١٠/٥١٢ .

(١٣) نفس المرجع ، ص ٥٠٦/٥٠٧ .

(١٤) عبد العزيز نوار ، سبق ذكره ، ص ٢٣٨/٢٣٩/٢٤١ .

(١٥) Uzunçarsili, Ismail Hakki, a.g.e., C.II, S. 361

(١٦) فريدون ، المرجع السابق ، ص ٥١٦ — ٥٢١ .

(١٧) جودت سبق ذكره ، جـ٢ ص ٢٧٢ .

(١٨) Olson, Ibid, P. 17

(١٩) فريدون ، سبق ذكره ، ٥٢١ — ٥٢٣ .

الفصل الثامن

حرب الأربعة والستين عامـاً

رغم بوادر الضعف التى بدت على الدولة العثمانية فى أواخر القرن العاشر الهجرى لم تتخل هذه الدولة عن مسئولياتها الإسلامية ، وواصلت – ولو فى شكل محدود – فتوحاتها فى أوروبا ، إذ استطاع السلطان سليم الثانى (٩٧٤ – ٩٨٢ هـ) أن يفتح جزيرة قبرص عام ٩٧٨ هـ وأن يلقى بالبنادقة فى البحر ، بدافع « تطهير طريق الحج كما ورد فى رسالته إلى مسلمى الأندلس وقد بعثوا يستنجدون به ، وتشير نفس الرسالة إلى الحرب الضروس التى كان العثمانيون يخوضونها ضد الصليبيين فى البلقان « فإن المسيحيين فى بلاد الرميلى (البلقان) ما فتئوا يتحصنون فى حصونهم وينقضون على المسلمين من حين لآخر »[1] .

بيد أن البنادقة وقد عزموا على الانتقام ، عقدوا تحالفا قويا مع الإسبان والبابا والنمسا وأنزلوا بالأسطول العثمانى هزيمة قاسية فى موقعة اينه بختى (لبانتى عام ٩٧٩ هـ)، ورغم هذه الهزيمة استطاع العثمانيون تحقيق انتصارات على الجبهة النمساوية ، وتمكنوا من فرض السيادة على إقليم بولونيا (لهستان) متعهدين بحمايتها من الروس عام ٩٨٥ هـ، واستطاع محمد الثالث (١٠٠٣ – ١٠١٢ هـ) فتح قلعة أورلو القريبة من بلغراد وكانت قد امتنعت على جده سليمان القانونى وفتحت جزيرة كريت عام ١٠٥٥ هـ فى عهد السلطان إبراهيم الأول (١٠٤٩ – ١٠٥٨) كذا قلعة نوهزل المنيعة والمطلة على مدينة فيينا عام ١٠٧٤ هـ.

استطاع العثمانيون تحقيق هذه الانجازات من ناحية وأن يصمدوا أمام الهجمات الصليبية الشرسة على جبهات طويلة وفى مناطق مختلفة من ناحية أخرى . لكن ما الذى أصاب الدولة العثمانية لتتردى من موقف القوة إلى الضعف ؟ لذلك عوامل وأسباب عديدة طالما ذكرها المؤرخون ولا مجال هنا لذكرها بل نكتفى بالإشارة إلى أهمها :

١ – عوامل داخلية : منها النظم الإدارية وأسلوب الحكم فى الولايات وعدم قابلية عناصر الجيش لتطوير وسائلها الحربية وما إلى ذلك ...

٢ – عوامل خارجية : منها دخول الروس حلبة الصراع الدولى وتحالفهم مع النمسا وخروج الدول الاستعمارية تبحث عن صيد فى المياه الإسلامية .

٣ – أما أهم العوامل قاطبة فهو الحروب العثمانية الإيرانية ، إذ كانت هذه الحروب من الضراوة وطول الأمد ما يكفى لإنهاك العثمانيين وضعفهم ومن ثم عدم قدرتهم على الصمود فى الجبهة الأوروبية مما يعنى انحسار المد الإسلامى عن أوروبا .

لقد بدأ تراجع المسلمين عن البلقان حين اضطرت الدولة العثمانية إلى توقيع معاهدة قارلوفجه عام ١١١٠ هـ، إذ بمقتضاها خرجت دولة المجر من قبضتها ثم توالت الهزائم وتوالت التنازلات ، فإذا تابعنا تاريخ الحروب العثمانية الإيرانية قبل هذا التوقيع لأدركنا تزامن هذه الحروب مع محاولات الدولة العثمانية الوقوف على قدميها أمام الصليبيين من ناحية ، وطول أمد هذه الحروب من ناحية أخرى فقد امتدت إحداها لتصل إلى أربعة وستين عامًا يمكن اعتبارها متصلة رغم ما تخللها من فترات هدوء على جبهة القتال لم تتعدى كونها هدنات قصار ولنا أن نقسم هذه الحروب الضروس إلى الجولات التالية :

الجولة الأولى (٩٨٥ – ٩٩٧ هـ) :

اهتز عرش الصفويين عقب وفاة طهماسب بسبب نشوب النزاع بين الأسرة الحاكمة على العرش ، وانقسمت هذه الأسرة على نفسها بين سنة وشيعة واستطاع الجناح السنى بزعامة بريهان ابنة الشاه طهماسب بالاستعانة بالعشائر

الأفشارية تولية الشاه إسماعيل الثانى الذى كان سجينا فى قلعة آلموت[٢] بيد أن جناح محمد خدابنده تغلب فى النهاية ليستقر له أمر حكم إيران (٩٨٥ – ٩٩٥ هـ) ، وكان يكن شعورا عدائيا ضد العثمانيين ظنا منه أنهم وراء ما حدث من صراع على الحكم ، فإذا أضفنا إلى ذلك سعيه إلى تحقيق تماسك فى الجبهة الداخلية بتكتلها لحرب. خارجية ، أدركنا كم كان الجانب الصفوى متحفزاً لحرب جديدة ضد العثمانيين .

ولم يكن المستفيدون من الحرب فى الجانب العثمانى قلة ، إذ كان والى أرضروم ووالى فان يتطلعان إلى قيادة الحملة ، وكان السلطان يتوقع حربا سهلة علها ترفع من الروح المعنوية لجنوده العائدين من إحدى الهزائم الأوروبية ولذا لم تنجح جهود الصدر الأعظم محمد صقوللى باشا لمنع الحرب[٣] .

موقعـــة المشاعـــل :

وكان هجوم الإيرانيين على إحدى قوافل الحرير العثمانية أثناء خروجها من جيلان سببا كافيا لاندلاع الحرب[٤] . واتجه الجيش العثمانى شرقا فاستولى على تفليس ، حيث انضم إليه جيش عادل كراى حاكم القرم ، والتحم الجيشان وهزم جيش القرم ، مما أدى إلى جرأة الجيش الإيرانى فلم يفر من ساحة القتال كالعادة وحمى وطيس القتال بين الطرفين حتى غشيهما الليل فلم يأبها به وواصلا القتال على ضوء المشاعل ولذا أُطلق على هذه الموقعة (موقعة المشاعل)، وبلغت خسائر الإيرانيين فيها سبعة آلاف قتيل[٥] .

لم تحسم نتيجة الحرب لأى من الطرفين واستمرت المفاوضات إلى أن تولى الشاه عباس الأولى (٩٩٥ – ١٠٣٧ هـ) الحكم بعد تنازل أبيه ، وقد آثر الشاه عباس الصلح لأسباب عدة من أهمها :

١ – قويت شوكة قبائل الأوزبك فأراد أن يتفرغ للقضاء عليها .

٢ – كسب المزيد من الوقت لبناء جيش قوى .

لذا لم يعترض الشاه عباس على شروط العثمانيين للصلح على أساس بنود معاهدة آماسيا (٩٦٢ هـ) بحيث يحتفظ العثمانيون بما فى حوزتهم من مدن بتوابعها[٦] وجاءت أهم بنود معاهدة استانبول الأولى كالآتى :

١ - احتفاظ العثمانيين بمدن وأقاليم : تبريز وآذربيجان وقره باغ وكنجه وقارص وتفليس وشهرزور ونهاوند ولورستان .

٢ - توقف الخطباء ودعاة الشيعة عن سب الخلفاء الراشدين والسيدة عائشة (رضى الله عنهم) .

واحتفظ الجانب العثمانى بالأمير الإيرانى حمزه ميرزا كرهينة خوفا من اخلال الجانب الإيرانى بالاتفاق(٧) .

التحالف الصفوى الأوروبى :

ظل الجانب الإيرانى ملتزما بالاتفاق موحيا بأنه تخلى عن كل ما يعكر الصفاء بين الدولتين ، فتخلى الشاه عباس عن علويته المتطرفة فى رسائل للعثمانيين وبدأ يستهلها بالسلام على الخلفاء الراشدين الأربعة(٨) .

كان للشاه عباس ما أراد فتخلص من مناوئيه الأوزبك ثم شرع يبنى جيشه مستعينا بضابط بريطانى مغامر انطوانى شيرلى Antone Shirly(٩) من ناحية ، وبدأ اتصالاته مع الجبهة الصليبية عله يجد حليفا ضد الدولة العثمانية من ناحية أخرى ، فقدم عروضا للأسبان - عن طريق البنادقة - لكى يتقاسما أراضى الدولة العثمانية ، فتحصل الأولى على الجزء الأوروبى وتستأثر الثانية بالآسيوى ولم يكن هذا العرض سوى واحد من عروض كثيرة حملها سفراء إيرانيون كانوا يقطعون المسافة بين أوروبا وإيران جيئة وذهابًا(١٠) . من ذلك إرسال وفد فى عام ١٠٠٨ هـ برئاسة السير أنطون شيرلى إلى كل من البابا وملكة انجلترا ورئيس البنقية وملوك كل من فرنسا وبولونيا فى الوقت الذى كانت الحرب بين الدولة العثمانية والنمسا مشتعلة الأوار(١١) .

ولم تكن هذه الاتصالات بخافية على السلطان العثمانى الذى كتب إلى الشاه قائلا :

« علمنا بتصرفات لا تصدر عن عاقل قط ، فلم يعد خافيًا علينا أمر سفاراتك إلى الكفرة ، ونحن نعرف أيضا أن الهدف من هذه السفارات هو إرضاء هوى فى نفسك وإشباع نزعة توسعية تتغلب عليك ، وهى تتفق وأهداف الكفرة الأعداء ، إنك مع الكفرة على اتفاق ، ومع المسلمين الموحدين فى نفاق ، توهمت

أنك تستطيع أن تغافل سلطان العالم وخادم الحرمين المحترمين ، هيهات »[١٢] .

الجولة الثانية (١٠١٢ - ١٠٢١ هـ) :

لم ينتظر الشاه عباس حتى تؤت اتصالاته الأوروبية ثمارها إذ واتته الفرصة حين شغل الجيش العثمانى بشاغلين عظيمين :

أحدهما خارجى وهى الحرب النمساوية التى قسمته على أربع جبهات تشمل معظم قارة أوروبا .

والآخر داخلى وهو ثورات الجلاليين[١٣] فى الأناضول ثم وفاة السلطان محمد وتولى أحمد الأول (١٠١٢ - ١٠٢٦ هـ) الذى لم يكن قد تجاوز الرابعة عشرة من عمره بعد .

بعد تبادل الرسائل والتنابذ بالألقاب كالعادة[١٤] باغت الشاه عباس الحامية العثمانية فى تبريز واستولى على المدينة ، ورغم قيام الجيش العثمانى بحملتين متواليتين على إيران لم يحقق أى انتصار بسبب ما كان يقع من خلافات بين القادة العثمانيين من ناحية ، وتوالى قلاقل الجلاليين من ناحية أخرى ، وأخيرا بدأت الحملة العثمانية الثالثة تحقق بعض النجاح على الجبهة الإيرانية بقيادة قيوجى مراد باشا عام (١٠١٩ هـ) عندئذ أرسل الشاه يطلب الصلح وفرض شروطه على العثمانيين هذه المرة ، فحصل من العثمانيين على : تبريز وشيروان وروان مقابل أن يدفع مائتى حمل حرير سنويا ، وكانت تلك أهم البنود التى شملتها معاهدة استانبول الثانية (١٠٢١ هـ) فضلًا عن البنود التقليدية مثل عدم الاعتداء على القوافل والكف عن سب الخلفاء الراشدين[١٥] .

الجولة الثالثة (١٠٢٤ - ١٠٢٨ هـ) :

لم يطل التزام الشاه عباس بما قطعه على نفسه فى معاهدة استانبول ورفض إرسال الحرير المتفق عليه قائلا: « لن أدفع جزية للعثمانيين » واحتجز نائب الصدر الأعظم الذى كان سفيرا بين الجانبين[١٦] مما يعنى الإعلان عن حرب جديدة وقد حفزه إلى ذلك عاملان :

الأول : اخفاقه مع امبراطور ألمانيـا .

الثاني : تفاقم الاضطرابات وحركات التمرد بين جنود الانكشارية فى الجيش العثمانى ، تلك الاضطرابات التى بلغت حد عزل السلطان مصطفى الأول (١٠٢٦ - ١٠٢٧ هـ، ١٠٣١ - ١٠٣٢ هـ) .

بدأ الشاه عباس بالمناوشة ، وطلب الصلح ثم أعرض ، فدخل الجيش العثمانى مدينة تبريز وانسحب منها عباس إلى أردبيل واستولى عليها ثم عاود طلب الصلح بشرط تخفيض كمية الحرير المفروضة على إيران إلى مائة حمل فقط وكانت مطالب العثمانيين كالآتى :

« قبول الحدود التى تحددت فى عهد سليمان القانونى دون أى تغيير ومن ثم انسحاب الإيرانيين من حول بغداد وشهرزور إلى سناجق همين ودرنه ودرتنك وتظل هذه السناجق وتوابعها فى حوزة الإيرانيين فى مقابل أن تظل آخسقه وتوابعها وقلعة قارص وتوابعها فى حوزة العثمانيين ، وعلى أن يتعهد الجانب الإيرانى بعدم الاعتداء عليهما ، وأن يكف الإيرانيون عن سب الخلفاء الراشدين والصحابة أجمعين »[١٧] . شكلت هذه المطالب بنود الاتفاق الذى تم توقيعه بين الشاه عباس والسلطان عثمان الثانى (١٠٢٧ - ١٠٣١ هـ) عام ١٠٢٨ هـ[١٨] .

الجولة الرابعة (١٠٣٣ - ١٠٤٩ هـ) :

رأى الشاه عباس الوقت مناسبًا للقيام بعمل عدائى ضد الدولة العثمانية التى كانت تعيش آنذاك ما عرف فى التاريخ العثمانى باسم (هائله عثمانية) أى النكبة العثمانية إذ أدى تمرد قوات الانكشارية إلى عزل السلطان عثمان الثانى ثم قتل ، تزامن هذا الحدث مع تمرد قائد الحملة العثمانية فى بغداد ورفعه عصا الطاعة على الوالى العثمانى يوسف باشا ثم قام بقتل الوالى وتولية نفسه عليها ، ثم لجأ إلى الشاه عباس عندما علم بقدوم الحملة التأديبية ، فانتهز الشاه هذه الفرصة وسارع بالاستيلاء على بغداد وولى صوباشي بكر عليها عام ١٠٣٣ هـ وأعقبها بالاستيلاء على كركوك والموصل ثم ولاية آخسقه فى أقصى الشمال .

حين تهيأ السلطان مراد الرابع (١٠٣٢ - ١٠٤٩ هـ) للتصدى لهذا الهجوم كان عليه أن يواجه فى الداخل: فتنة الأباظية فى شرقى الأناضول والدروز

فى الشام والانكشارية فى استانبول . أما فى الخارج : بولونيا وخانات القرم والنمسا . ورغم ذلك تحرك الجيش العثمانى قاصداً بغداد ثم حاصرها ولم يستطع فتحها بل هزم أمام الجيش الإيرانى وعاد الصدر الأعظم عام ١٠٣٦ هـ إلى العاصمة صفر اليدين فعزل من منصبه ، وتوجهت حملة إلى الشمال لتحرير (آخسقه) ولم يكن نصيبها من النجاح أوفر حظا من مثيلتها إلى بغداد ، بل تعرضت لهجوم الأباظيين أثناء الانسحاب مما أدى إلى فداحة خسائرها .

تولى الصدارة خسرو باشا وكان مدركًا أن الجيش العثمانى لن يحقق أى انتصار فى الخارج ما لم يقض على القلاقل الداخلية ، وبدأ بالقضاء على الأباظيين بعد لجوئه إلى الحيلة ، ثم توجه إلى الموصل وحاصرها طيلة اثنى وأربعين يوما وفتحها بعد أن هزم الصفويين فى موقعة مهربان عام ١٠٣٨ هـ ولم يتحرك إلى بغداد إلا بعد أن أتم بناء قلعة (كَل عنبر) أمام الموصل وأحكمهم تحصينها ثم تحرك إلى دركوزين فبغداد وحاصرها، لكنه فشل فى دخولها لتذمر الجنود وحلول فصل الشتاء فرفع عنها الحصار وعاد إلى الموصل .

لم يحسم أمر هذه الحرب إلا خروج السلطان مراد بنفسه على رأس جيش كبير قام بتطهير جيوب الفتن فى الأناضول ثم اتجه إلى روان فاستولى عليها عام ١٠٤٥ هـ ،وأتبعها بقارص ثم عاد إلى استانبول . وفى عام ١٠٤٧ هـ قاد السلطان الجيش بنفسه أيضا وتوجه إلى مدينة قونيه للتمويه، منها إلى حلب فالموصل وعسكر بالأعظمية فأرسل الإيرانيون يطلبون الصلح،وبعد مفاوضات استمرت زهاء عام وقع الطرفان معاهدة قصر شيرين فى محرم ١٠٤٩ هـ وبمقتضاها تحددت حدود تركيا – إيران الحالية وكانت أهم بنودها :

- عودة العراق العربى إلى الدولة العثمانية على أن تكون الحدود من ناحية بغداد على النحو التالى :

(أ) يؤول للعثمانيين بدره حسن وخانقين ومندلى ودرنه والصحارى الواقعة بين درتنك وسرميل ومضارب عشيرة الجات والقرى الواقعة غرب قلعة زنجير وقلعة ظالم وما حولها (بالقرب من شهرزور) هذا عدا بغداد وشهرزور والبصرة بلواحقها .

(ب) تؤول اريفان إلى الإيرانيين .

٢ – فى الشمال تؤول الأراضى التالية للعثمانيين : قارص آخسقه وفان بلواحقها ما عدا ذلك يعود إلى الإيرانيين .
٣ – هدم القلاع المتاخمة للحدود العثمانية وهى قلاع :
زنجير وقوطور (بالقرب من فان) وكل القلاع المطلة على قارص .
٤ – الكف عن سب الخلفاء الراشدين والسيدة عائشة والصحابة أجمعين[١٩] .

هكذا استنفذت هذه الحرب الضروس أربعة وستين عامًا من عمر الدولتين كانت الدولة الدولة العثمانية تحاول خلالها التصدى لاتفاقات التحدى الصليبية، وكان عهد السلطان مراد الرابع يبشر بالخير ، حتى رأى فيه المؤرخون فاتحا من الفاتحين الأوائل ، لكن اخترمته المنية فى عام انتهاء الحرب العثمانية الإيرانية أى أنه أفنى سنى حياته فى الحرب على جبهة إسلامية .

هوامش الفصل الثامن

(١) فريدون ، سبق ذكره ، جـ ١ ، ص ٤٥٩ .

(٢) Uzunçarsili, Ismail Hakki, a.g.e., C.III, S. 55

(٣) ذهب محمد فريد في كتابه تاريخ الدولة العلية العثمانية إلى أن هذه الحرب نشبت بتشجيع من الصدر الأعظم ، لكن المؤرخ التركي اثبت عكس ذلك معتمداً على الوثائق ومضابط جلسات الديوان وهو ما يخلو منه كتاب محمد فريد : تحقيق ، احسان حقي ، بيروت ١٤٠١ ، ص ٢٦١ .

(٤) Olson, Ibid, P. 17

(٥) Uzunçarsili, a.g.e., a.c., S. 60

(٦) فريدون ، سبق ذكره ، جـ ٢ ، ص ١٦٠ .

(٧) Uzunçarsili, a.g.e., a.c., S. 63 ، أما عن الأمير حمزه ميرزا فقد توفي على أثر اصابته بالحمى باستانبول عام ١٠٠٤ هـ .

(٨) فريدون ، سبق ذكره ، جـ ٢ ، ص ١٦١ .

(٩) Uzunçarsili, Ismail Hakki, a.g.e., C.II, S. 153

(١٠) Olson, Ibid, P. 18

(١١) Uzunçarsili, a.g.e., a.c., S. 64

(١٢) فريدون ، سبق ذكره ، ص ١٩٠ .

(١٣) كان مثيرو هذه الفتن – في حقيقة الأمر – من الفرسان أصحاب الاقطاعات الحربية ممن صودرت إقطاعاتهم بعد هروبهم من الميدان اثناء الحرب ، لكن أولاها اشعلها شخص يدعى جلال في ولاية بوزوق وكان أحد الهاربين من مطاردة السلطان سليم الأول للشيعة في الاناضول قبل حرب جالديران (نامق كمال ، سبق ذكره ، جـ ٣ ، ص ١٣١) .

(١٤) في رسالة من الصدر الأعظم إلى الشاه عباس يعيره بانتصارات العثمانيين مع كل الحروب مذكرا اياه بأن الانتصار الوحيد لهم إنما حققوه ضد التتار ويقصد جيش القرم (فريدون ، سبق ذكره ، جـ ٢ ، ص ١٧٤/١٧٨) .

(١٥) Uzunçarsili, a.g.e., a.c., S.

(١٦) المرجع السابق ، ص ٦٧ .

(١٧) فريدون ، سبق ذكره ، جـ ٢ ، ص ١٧٢ – ١٧٣ .

(١٨) وردت هذه البنود فى :

نعيما ، تاريخ نعيما ، سبق ذكره ، جـ ٢ ، ص ٧٢١ - ٧٢٢ .

(١٩) باختصار عن :

Uzunçarsili, a.g.e., a.c., S. 158-206

Danismend, Ismail Hamdi, a.g.e., C.III, S. 300-383

وقد وردت بعض هذه البنود نقلا عن مصادر انجليزية فى :

عبد العزيز نوار ، العلاقات العراقية الإيرانية ، دار الفكر العربى ، ١٩٧٤ ، ص ٨٥ - ٨٦ .

(٢٠) وردت أسباب النزاع فى التقرير الذى كتبه المبعوث العثمانى أمين الخزانة اسعد افندى كالآتى :

(أ) صراع شخصى بين والى بغداد وولى العهد الإيرانى .

(ب) مؤامرات الولاة الاكراد وخوفهم من الجانب الايرانى .

(جـ) الرسوم الجمركية المفروضة على البضائع الإيرانية ومغالاة الموظفين العثمانيين فى تقديرها .

(د) لجوء بعض العشائر إلى أحد الجانبين سعيا وراء المشاتى والمصايف .

(باختصار عن جودت ، سبق ذكره ، جـ ٢ ، من ص ٢٤٢ - ٢٤٥) .

وكانت أهم بنود معاهدة أرضروم كالآتى :

١ - الالتزام بالحدود المحددة بمعاهدة ١١٥٩ .

٢ - تسهيل الحج واعفاء البضائع غير التجارية للحجاج .

٣ - عدم عقد اتفاقات مع موظفى الدولة العثمانية .

٤ - عدم تدخل أى دولة فى الشئون الداخلية للدولة الأخرى .

٥ - عدم فرض رسوم اضافية على الحجاج ومعاملة التجار اسوة بغيرهم من تجار الدولة العلية .

٦ - تحديد الرسوم الجمركية بـ ٤٪ .

٧ - تحديد المصايف والمشاتى لعشائر حيدرانلى وسبيكلى ، وعدم قبول اللاجئين منهم .

٨ - تسليم الموارد والأموال التى صادرتها الدولة العثمانية من التجار الايرانيين .

٩ - اقامة سفير لكل من الدولتين لدى الأخرى لمدة ثلاث سنوات بالتناوب .

(باختصار عن المرجع السابق ، نفس الجزء ، ص (٢٢٨ - ٢٣٥) .

(٢١) عبد العزيز نوار ، المرجع السابق ، ص ٢٥ .

الفصل التاسع
ضعف الدولتين وخضوعهما للنفوذ الأوروبى

ساد الهدوء الجبهة الإيرانية العثمانية فى أخريات حكم شاهات الأسرة الصفوية، وبالتحديد من عهد صفى الأول (١٠٣٧ - ١٠٥٢ هـ) إلى الشاه حسين (١١٠٥ - ١١٣٥ هـ) وكان السبب الرئيسى الكامن وراء هذا الهدوء هو انشغال الأسرة الصفوية بالنزاع فيما بينها من ناحية وبين العشائر الاجتياحية الأفغانية من ناحية أخرى .

وفى أخريات حكم الشاه حسين بدأت إيران تتذمر من زيادة الرسوم الجمركية التى فرضتها الدولة العثمانية على البضاعة المارة بأراضيها - طبقاً للمواثيق التى أقرتها الدولتان ، وكانت الدولة العثمانية بدورها ترى أنها بذلك تؤدى لإيران خدمة لم تكن لتنالها من قبل ، فلم يكن فى مكنة التجار الإيرانيين أن يخترقوا بلغراد قاصدين النمسا ، بل كانوا يلجأون إلى الطرق البعيدة فى شمال أوروبا ، مما كان يرهقهم بل ويؤدى إلى موتهم أو نفوق دوابهم . وكان ذلك من أسباب ندرة البضائع الفارسية فى النمسا وارتفاع سعرها، ولكن بعد الاتفاق مع إيران وعقد الصلح مع النمسا انسابت البضائع الإيرانية إلى النمسا مباشرة ومن البديهى أن تحصل الدولة على ضرائب مقابل مرور قوافل التجارة عبر أراضيها ، فإن حماية هذه القوافل وتقديم الخدمات لها يكلف الدولة الشىء الكثير[1] .

أسفرت الدولة العثمانية بالدفتردار دُرّى أفندى ليشرح الموقف برمته فى البلاط الإيرانى ويبدو من التقرير الذى كتبه للسلطان عن سفارته أن الأمور لم تكن على ما يرام بين الدولتين[٢] ولم يمض طويل وقت حتى جاءت تقارير ولاة الحدود العثمانيين تفيد بأن إيران تموج بالاضطرابات بعد وفاة الشاه حسين وأن الأفغان اجتاحوا البلاد والروس أيضا ينتظرون على الحدود الشمالية لإيران وكان لهذه الأنباء أثرها فى إرباك السوق المالية فى الدولة العثمانية أيضا إذ بعث التجار الفرنجة والفرس الموجودون فى تبريز إلى شركائهم فى أزمير واستنابول يبكون أصفهان المحاصرة ويخبرونهم بأن إيران برمتها ضائعة لا محالة »[٣] .

عُقد مجلس الحرب فى الدولة العثمانية وأجمعت الآراء على أن « جار الدار أحق بدار الجار »[٤] إذ لم تكن الدولة تخشى مير محمود الأفغانى (١١٣٥ – ١١٣٧ هـ) بقدر ما كانت تخشى دخول الروس فارس ؛ فقد انتهزت الحكومة الروسية الناهضة بقيادة قيصر الأكبر هذه الفرصة فسعت إلى التوسع جنوبا على حساب فارس مدعية أنها تعمل على إنقاذ فارس من الطاغية الأفغانى مير محمود[٥] .

وصلت التقارير إلى حكومة السلطان أحمد الثالث (١١٥ – ١١٤٣ هـ) من ولاة الحدود وهم : حسن باشا والى بغداد وحسين باشا زاده أحمد والى البصرة ومصطفى باشا والى الموصل وكوبريلى زاده عبد الله والى فان وإبراهيم والى أرضروم ثم أمراء قارص وجلدر وشهرزور[٦] . وقد أجمعت هذه التقارير على ضعف الجبهة الإيرانية وأنه آن للسلطان أن يضم إيران إلى الدولة العثمانية فيحقق بذلك عدة أهداف :

الأول : القضاء على عدو الشرق التقليدى .

الثانى : تعبئة كافة الإمكانيات المادية والبشرية للقضاء على عدو الغرب التقليدى وهو النمسا .

الثالث : الوقوف أمام الخطر الذى بدأ يتسرب حديثا إلى ساحة الصراع وهو روسيا القيصرية .

الحروب العثمانية الأفغانية (١١٣٥ – ١١٤١ هـ) :

أصدر شيخ الإسلام فى استنابول فتواه التقليدية بأن إيران تعد دار حرب وأن (القزلباشية) هم فى حكم المرتدين لأنهم ما انفكوا عن سب الخلفاء الثلاثة وقذف السيدة عائشة ومازالوا يستبيحون قتل أهل السنة ويستحلون نساءهم ويطأون أسراهم من النساء دون زواج[٧] .

وقد تزامن إعلان الدولة العثمانية الحرب مع اعتلاء مير محمود الأفغانى عرش إيران بعد انتصاره على الأسرة الصفوية وأسره الشاه حسين وأولاده وفرار ولى العهد طهماسب إلى شمال إيران .

على أية حال كانت الحرب العثمانية الأفغانية هذه المرة بمثابة نزهة فى البداية فسرعان ما اجتاحت الجيوش العثمانية أقاليم فراس ومدنها الحصينة مثل :روان وشهرارد وآباد ونمجوان ونهاوند وتبريز ولور وكنجه وهمذان ولاشك أن هناك عدة عوامل ساعدت العثمانيين على هذه الاجتياح :

١ – انقسام الفرس على أنفسهم بين مؤيد ومعارض للحكم الأفغانى خاصة فى عهد مير محمود .

٢ – ضعف الجيش الأفغانى الذى لم يستطع استمالة العناصر الإيرانية ولم يتمكن من استجلاب عناصر أفغانية من قندهار[٨] .

٣ – عودة العشائر الفارة من الحروب الأفغانية الصفوية فى ظل حماية جيش قوى مثل الجيش العثمانى الذى أعاد إلى هذه العشائر منازلها وطواحينها بل وقراها[٩] .

بعد أن توفى مير محمود خلفه أخوه أشرف خان (١١٣٧ – ١١٤٢ هـ) وكان – على عكس أخيه – سياسيًا محنكًا على قدر كبير من الدهاء فأراد أن يصيب العثمانيين فى مقتل ، فأرسل سفيره إليهم يذكرهم بأنهم يحاربون اخوتهم فى المذهب – أى السنى – بينما يجب أن يتكاتفا ضد الصفويين الشيعة ، ولذا يجب على الدولة أن ترد إليه كل ما أخذته من مدن والعودة بالحدود إلى ما كانت عليه[١٠] .

والواقع أن (سياسة الالتفاف) هذه كان لها أشد الأثر فى الجبهة العثمانية نفسها فقد هزّت أرجاء الدولة وخشيت الحكومة من تفاقم المعارضة ، فأرسلت

تستفتى العلماء فى كافة أرجاء الدولة وجمعت منهم فتاوى كثيرة دارت حول مضمون واحد « أنه لا يجوز وجود امامين (خليفتين) فى وقت واحد ، وعلى أحدهما أن يبايع الآخر » وطلب من أشرف خان البيعة للسلطان العثمانى ، ولما رفض اعتبر باغيا ووجب قتاله(١١) .

ولئن كانت جهود العلماء فى الدولة العثمانية قد خففت من حدة معارضة العثمانيين أنفسهم ، فإنها لم تمنع تسرب عشائر التركمان والأكراد السنية إلى الجانب الإيرانى الذى اتبع حرب العصابات ضد الحاميات العثمانية فى المدن والقلاع(١٢) مما جعل بقاء الجيوش العثمانية فى إيران أمرا مكلفا فاضطر السلطان لقبول الصلح مع أشرف خان عام ١١٤٠ هـ وأهم ما جاء به :

١ – أن تستبقى الدولة العثمانية ما فتحته تحت يدها .
٢ – أن تدخل الحويزة فى إطار الدولة العثمانية .
٣ – اعترف أشرف بأن السلطان خليفة المسلمين ، واعترف السلطان بأشرف خان شاه على فارس(١٣) .

نادر شاه وابتداع المذهب الجعفرى :

استطاع نادر قلى (نادر شاه فيما بعد ١١٤٨ – ١١٦٠ هـ) أن يطرد أشرف من إيران ، وأن يقيم مقامه طهماسب الثانى آخر ولى عهد للأسرة الصفوية ، ولما ساءت الأحوال خلعه ، وأجلس مكانه ابن عباس الثالث لمدة عشرة أشهر ، ثم توفى عباس فأمسك نادر شاه بزمام الأمور ، وكان شاها طموحا رمى ببصره خلف حدود إيران ، لكن كان يجب عليه أن يحرر بلاده ويعيد وحدتها ، وتم له ذلك بعد أن حرر شمال بلاده من الروس ، وقضى على فلول الأفغانيين واتجه إلى الهند واحتل بعض أجزائها ولا شك أن هذه الانتصارات أغرته بزعامة إسلامية ، ولكنه فى حاجة إلى سند معنوى خاصة وأنه لا ينتسب إلى عائلة ارستقراطية حاكمة – وكان يعلم أن المذهب الشيعى مسئول إلى حد كبير عن تدهور البلاد وعزلتها عن بقية جيرانها ، والانقلاب الكامل نحو المذهب السنى كان أمرًا عسيرًا للغاية ، ولذلك اختار الحل الوسط وهو إعلان (المذهب الجعفرى) – نسبة إلى الإمام جعفر الصادق – مدعيًا بأنه مذهب مخالف للشيعة

وأرسل إلى السلطان محمود الأول (١١٤٣ - ١١٦٨ هـ) يطلب منه الاعتراف به كمذهب سنى خامس ، فرفض وكان ذلك معناه حرب جديدة بين الدولتين وفي نفس الوقت جاء سفير فرنسا إلى السلطان العثماني يعرض عليه تحالفا للهجوم على النمسا - التى اضطربت الأمور فيها بعد وفاة الإمبراطور شارل السادس فى ١٧٤٠ م - واسترجاع المجر وكل ممتلكاتها منها ويمكنها أن تقف أمام الروس بعد ذلك[١٤] ولكن كيف تستطيع الدولة العثمانية أن تُقْدِم على هذه الخطوة وجحافل الفرس بقيادة نادر شاه تزحف إلى بغداد .

وكان العثمانيون على حق فى تخوفهم من قوة نادر شاه إذ استطاع أن ينزل بهم هزيمة قاسية على ثلاث جبهات :

١ - فى بغداد ضد جيش أحمد باشا والى بغداد .
٢ - فى الموصل وديار بكر ضد جيش حسين باشا محافظ الموصل .
٣ - وفى قارص بقيادة الصدر الأعظم حاجى أحمد باشا .

وأعقب هذه الحرب توقيع اتفاق فى ١١٥٩ هـ يقضى بالعمل بمعاهدة قصر شيرين ١٠٤٩ هـ وحماية الحجاج وعدم تحصيل ضرائب منهم إلّا على البضائع التجارية فقط وعدم قبول اللجوء السياسى للفارين من الدولتين[١٥] .

الاستعمار الأوروبى وتقسيم مناطق النفوذ :

ولا يختلف اثنان على أثر هذه الحروب المتواصلة فى إنهاك الدولتين وتبديد طاقاتهما وبينما كانت قوى العالم الإسلامى تزداد وهنا يوما بعد يوم كانت الدول الأوروبية الفتية مثل انجلترا وفرنسا وهولندا وألمانيا وروسيا تزداد قوة وطموحا وتزداد صناعاتها ازدهارا ، ولذا فقد خرجت هذه الدول تبحث عن المواد الخام اللازمة لصناعاتها وأسواق لتصريف بضائعها ولم يكن أمام هذه الدول الاستعمارية صيدا أسمن ولا أسهل من بلدان المسلمين الغنية بكل ما تطلبه الدول الاستعمارية من موارد المواد الخام وأسواق قادرة على ابتلاع كل ما تنتجه ومواقع استراتيجية تشرف على شرايين التجارة العالمية .

على أية حال تمخضت هذه التطورات العالمية الكبرى عن ظهور التنافس بين الدول الاستعمارية على مناطق النفوذ فى العالم الإسلامى ، وظهور ما عرف

فى التاريخ بالمسألة الشرقية، حقيقة كان هذا التنافس سببا فى الحفاظ على كيان الدولتين لكنه كان حفاظا مؤقتا إذ ما لبثت القوى الاستعمارية أن اتفقت فيما بينها على المناطق التى يمكن تقسيمها أو تلك التى تستأثر بها قوة دون الأخرى، ومن أمثلة هذا التنافس «عقد المعاهدة الروسية الفارسية فى ١٢٢٩ هـ (١٨١٣م) (معاهدة كلستان) سعت انجلترا إلى عقد معاهدة مع فارس تمت فى ١٢٣٠ هـ (١٨١٤م) كان معظمها موجه ضد الروس، وبذلك تكون انجلترا قد حصلت على امتيازات واسعة فى فارس وجعلت مصير فارس وعلاقاتها مع الدول الأخرى رهنا بموقف انجلترا[١٦].

ومع تطور الأوضاع وتغيير المواقف أمعنت الدول الأوروبية فى تآمرها وأمعن المسلمون فى غفلتهم أو تغافلهم عما يحيط بهم، وباتت إيران معولاً فى هدم صرح الدولة العثمانية فكلما اعتلى عرشها شاه طموح وكانت الدولة العثمانية فى مأزق سارعت إيران بالهجوم والحرب وإذا استعرضنا تاريخ الدولة العثمانية منذ مطلع القرن الثانى عشر الهجرى لوجدناه حافلا بالمشكلات التى كانت تواجهها هذه الدولة سواء تلك الناجمة عن التطورات الدولية التى سبق ذكرها — أو الأزمات الداخلية وعلى سبيل المثال إذا استعرضنا ما كانت تواجهه الدولة العثمانية من أزمات دولية وداخلية حين تعرضت لهجوم فتح على شاه لوجدناها كالآتى :

١ — الحملة الفرنسية على مصر والشام (١٢١٣ هـ).
٢ — الحملة الإنجليزية على مصر (١٢٢٢ هـ).
٣ — الحروب العثمانية الروسية (١٢٢٦ هـ).
٤ — وعلى الجبهة الداخلية كانت الدولة العثمانية تواجه :
(أ) العناصر المتمردة على محاولة تحديث الجيش.
(ب) العناصر الانفصالية فى الولايات البلقانية والعربية.

وكانت المعاهدة التى عقدت بين الدولتين فى أرضروم عام ١٢٣٨ خير شاهد على النهاية التى انتهى إليها العالم الإسلامى بعد هذه الحروب، إذ أصرت كل من روسيا وانجلترا على التواجد فى المؤتمر، وتمت المفاوضات بين إيران والدولة العثمانية بتوجيه منهما، بينما لم تكن أسباب النزاع تستوجب هذا التدويل للمسألة

ولم تختلف مواد المعاهدة المعقودة عما سبقها من معاهدات[17] .

وبمعنى أدق : « أصبح الصدام بين الصفوية الشيعية والعثمانية السنية يهم كل الاهتمام الدولتين : الإنجليزية والروسية ، وكانت كل منهما ترى أن بقاء الوضع الراهن من حيث الحفاظ على قوة محدودة لكل منهما تحول دون تدهورها الكامل خير من التورط فى عمليات اقتسام لهما تؤدى إلى ارتباكات دولية معقدة ، وكانت النتيجة المحتومة هى وقوع الدولتين فى براثن الاستعمار .

هوامش الفصل التاسع

(١) راشد ، تاريخ راشد ، المطبعة العامرة (استانبول) ١٢٨٢ هـ ، جـ٥ ، ص ١٦٣ ، ١٦٤ .
(٢) نفس المرجع ، ص ٣٧٢ وما بعدها .
(٣) إسماعيل عاصم افندى (كوجوك جلبى زاده) ، تاريخ جلبى زاده افندى ، المطبعة العامرة (استانبول) ، ١٢٨٢ هـ، ص ٦٢ .
(٤) نفس الصفحة من المرجع السابق .
(٥) عبد العزيز توار ، العلاقات العراقية الايرانية ، سبق ذكره ، ص ١٨ .
(٦) إسماعيل عاصم افندى ، المرجع السابق ، ص ٦٣ .
(٧) عن المرجع السابق ، ص ٦٥ .
(٨) عبد العزيز نوار ، الشعوب الإسلامية ، سبق ذكره ، ص ٢٨٧ .
(٩) إسماعيل عاصم ، سبق ذكره ، ص
(١٠) المرجع السابق ، ص ٣٥٠ .
(١١) نفس المرجع ، ص ٣٥٤ :
(١٢) مثال ذلك ما فعلته العشائر التركمانية والكردية فى جيلان (المرجع السابق) ص ٤٨٤ .
(١٣) عبد العزيز نوار ، المرجع السابق ، ص ٢٩٧ .
(١٤) محمد فريد ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق احسان حقى ، بيروت ، ١٤٠١ هـ ، ص ٣٢٤ .
(١٥) Osmanli Tarihi, age., C. IV, B.I, S. 309
(١٦) عبد العزيز توار ، العلاقات العراقية الايرانية ، سبق ذكره ص ٢٥٢ .
(١٧) نفس المرجع ص ١٨ .

المراجــع

(أ) مراجع عربية ومترجمة :

١ – ابن الاثير ، الكامل فى التاريخ ، بيروت ، ١٩٧٩ ، جـ ٩ .
٢ – أحمد السعيد سليمان ، الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، جـ ٢ .
٣ – أحمد كتابجى ، فضائل الترك فى أدب الجاحظ ، بيروت .
٤ – جمال زكريا قاسم ، النزاع البريطانى العثمانى فى الخليج العربى ، مجلة دراسات ما قبل العهد العثمانى ، تونس ، ١٩٨٢ .
٥ – حسين مجيب المصرى ، من أدب الفرس والترك ، القاهرة ، ١٣٦٩ هـ
٥ – عبد العزيز نوار ، الشعوب الإسلامية ، بيروت ، ١٩٧٣ .
العلاقات العراقية الإيرانية ، دار الفكر العربى ، ١٩٧٤ .
٧ – عبد النعيم حسنين ، السلاجقة فى إيران والعراق ، القاهرة ، ١٩٧٠
٨ – على الشابى ، الشيعة فى إيران ، تونس ، ١٤٠٠
٩ – الشهرستانى، محمد بن عبد الكريم ، ذيل الملل والنحل ، تحقيق محمد سيد الكيلانى ، بيروت ، ١٤٠١ هـ
١٠ – محمد فؤاد كوبريلى زاده ، قيام الدولة العثمانية ، ترجمة أحمد السعيد سليمان ، القاهرة ، ١٩٦٧ .

١١ – نوال حمزة الصيرفى ، النفوذ البرتغالى فى الخليج العربى ، الرياض ، ١٤٠٣ هـ
١٢ – يحيى بن حمزة العلوى، الإفحام لأفئدة الباطنية الطغام، تحقيق فيصل بدير عون وآخرون ، الإسكندرية ، ١٩٧١ .

(ب) مراجع تركية عثمانية :

١ – إسماعيل عاصم أفندى ، تاريخ جلبى زاده ، استانبول ، ١٢٨٢ هـ
٢ – جودت ، أحمد ، تاريخ جودت ، استانبول ، ١٣٠٢ هـ، جـ١ ، ٨ جـ١٢
٣ – راشد ، تاريخ راشد ، استانبول ، ١٢٨٢ هـ ، جـ٥ .
٤ – فريدون ، منشآت سلاطين ، غير مذكور مكان وتاريخ النشر ، جـ١ ،٢
٥ – محمد جلال ، فاتح سلطان محمد ثانى ، استانبول ، ١٣٠٨ هـ

(جـ) مراجع تركية حديثة :

1. Banarli, Nihad Smi, Resimli Türk Edebiyti Tarihi, Istanbul, 1971
2. 1Danismend, Ismail Hamdi, Isahli Osmanli Tarihi Koronolojisi, Istanbul, 1971
3. Namik Kemal, Osmanli Tarihi, Nesr. Ulviye Ilgar, Istanbul, 1974, I, II, III.
4. Pekolcay, Islamî Türk Edebiyati, Istanbul, 1973
5. Hizmetli, Sabri, Osmanlilardan önce Anadolu'da Siilik Problemi, I.I.E.D., Sayi 5, Ankara 1982.
6. Hulusî, Yavuz, Yemen'de Osmanli Hakimiyeti, Istanbul, 1984.
7 Köprülüzade, M. Fuat, Türk Edebiyatinda Ilk Mutasav flar, 1976
8. Togan, Zeki Velidi, Umûmî Türk Tarihine Giris, Istanbul, 1981
9. Turan, Osman, Dogu Anadolu'da Türk Devletleri Tarihi, Istanbul, 1973.
10. Uzunçarsili, Ismail Hakki, Osmanli Tarihi, 1972, C.I,II, III.

(د) مراجع انجليزية :

1. Creasy, Edward, History of Ottoman Turks, Beyrut, 1968.
2. Eliot, Charles, Turkey, in Europe, London, 1965.
3. Gibbons, herberr Adams, The Foundations of Ottoman Empire, London, 1968.
4. Olson, R., The Seige of Mousul and Ottoman Persian Wars, Lodon, 1976
5. Show, Stanford, History of Ottoman Empire and Modern Turkey, Cambridge Press, 1976.

(هـ) دائرة المعارف الإسلامية باللغتين : العربية والتركية

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس الكتاب

رقم الإيداع ٨٧/١٧٨٩
الترقيم الدولى ٠-٨٩-١٤٣٠-٩٧٧

مطبعة المدينة - ت ٦٨٣٢٥٦

هذا الكتاب

هذا الكتاب إسقاط للماضى على الحاضر ، وفيه عبرة لمن يعتبر فى المستقبل ، فكم فى التاريخ من دروس وعِبَرْ ...

يعرض مؤلفه فتنة من الفتن التى عصفت بآمال المسلمين ، وطاحت بأحلامهم ، وقلّصت بلادهم ، والمؤلف إذ يعرض هذه الصفحة من تاريخ الجهاد الإسلامى فى أوروبا ، إعتمد على الوثائق والمصادر التاريخية ولاسيما ما كُتب منها باللغة التركية العثمانية وهى مجال تخصصه ودراساته .

ويسرنا أيها القارىء الكريم أن نقدم لك هذا الكتاب .

وعلى الله قصد السبيل .